أعلام مؤرخي العرب والإسلام

ابن إياس

مؤرخ الفتح العثماني لمصر

إعداد
الدكتور حسين عاصي
أستاذ في الجامعة اللبنانية

المؤرخون

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

أعلام مؤرخي العرب والإسلام



إعداد
د. حسين عاصي
أستاذ في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تميزت مصر في العصور الوسطى في ميدان الثقافة الأدبية الإسلامية وفي الدراسات التاريخية على وجه الخصوص. فقد أضحت بعد سقوط بغداد زعيمة العالم الإسلامي ومقر الخلافة. لذا شدّ كثير من الأدباء والفقهاء والمؤرخين الرحال إليها حيث وجدوا الرعاية والآمال في كنف سلاطينها الأقوياء وأمرائها الذين كانوا يقدرون عظمة الماضي. وقد تسابق الحكام والأمراء وذوو الجاه والثراء في وقف الأراضي والعمائر على العلماء وطلاب العلم كي يتوفروا على دراستهم آمنين مطمئنين.

في هذا الجو العلمي المزدهر وقبيل النكبة التي حلّت بمصر المملوكية على يد الأتراك العثمانيين ظهر مؤرخنا ابن إياس الذي لحق بأواخر المؤرخين الكبار في مصر في العصور الوسطى والذي يعتبر آخر مؤرخ عظيم أرّخ لمصر وذلك في القرن التاسع الهجري وأوائل القرن العاشر الهجري حيث لم ينقطع

عن الدراسات التاريخية ولا عن التأريخ لمصر إلّا قبيل وفاته، وحيث تنتهي بكتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» حلقات تاريخ مصر المملوكية التي بدأت مع المقريزي في كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» وأبي المحاسن ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» و «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» وكذلك كتاب السخاوي «التبر المسبوك في ذيل السلوك».

يشتمل كتاب «بدائع الزهور» على تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل الحكم العثماني، لكن قيمته تكمن في أنه المصدر الأساسي والرئيسي الذي نعرف منه تاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي في أواخر عصر المماليك وفي بداية حكم العثمانيين لمصر، فضلاً عن حوادث الفتح العثماني لمصر والتي كان ابن إياس معاصراً لها وشاهداً عليها.

وعن ابن إياس مؤرخ الفتح العثماني لمصر ستدور مباحث هذه الدراسة آملين ان نفي بالقصد.

الفصل الاول

١ ـ الأحوال السياسية

عاش ابن إياس خلال حياته المديدة عصرين، وشهد أحداث جيلين: أواخر العصر المملوكي ومستهل العصر التركي العثماني. هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الإسلام كان ابن إياس شاهد عيان لأحداثها التي احتلت الأجزاء الثلاثة الأخيرة من كتابه. وهي ذات أهمية وظواهر خاصة تنم عن كثير من العوامل والظواهر السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي دفعت بالدولة المملوكية الثانية الى طريق الانحلال. ومهدت إلى سقوطها فريسة هيّنة في يد الفاتح العثماني السلطان سليم الأول.

يفهم مما كتبه المقريزي في خططه[1] تحت عنوان «ذكر

---

(١) عاشور: مصر والشام ص ١٩١.

دولة المماليك الجراكسة» ان السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) عندما ناصبه المماليك الظاهرية (نسبة إلى الظاهر بيبرس) العداء بعد ان خلع العادل سيف الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس، عزم على إنشاء عصبة من المماليك يكون إخلاصها وولاؤها له، يعتمد عليها في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية وتكون مميزة عن سائر الفرق المملوكية[١]. لذا اختار أعضاءها من المماليك الجراكسة، وهم من رعايا مملكة خوارزم، حيث أسس منهم فرقة أسكن أفرادها في أبراج قلعة الجبل فسميت بالبرجية.

ودأب السلطان قلاوون على زيادة عدد مماليكه المميزين حتى بلغ عددهم في نهاية عهده ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك[٢]. وتابع السلطان الأشرف خليل نهج أبيه بالإكثار من الجراكسة، حيث اشترى خلال عهده القصير (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) ألفي مملوك جميعهم من الجراكسة[٣]. وقد أدى ازدياد أعداد البرجية وحصولهم على مميزات ورعاية خاصة إلى نقمة الأمراء والمماليك البحرية، ودار صراع بينهم وبين الجراكسة عاشت معه مصر فترة قلق وعدم استقرار طويلة انتهت بأغتصاب برقوق الجركسي عرش السلطنة عام

---

(١) المقريزي: الخطط ٣/ ١٨٠.

(٢) المقريزي: نفس المصدر والصفحة.

(٣) حكم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية ص ١٣.

١٣٨٢ م، بعد أن خلع السلطان حاجي بن شعبان حفيد السلطان قلاوون[1] فأقصى بذلك ملك آل قلاوون عن مصر الذي امتد ما بين عامي ١٢٧٩ ـ ١٣٨٢ م.

وقد تمادى سلاطين الدولة المملوكية الثانية في سياسة الجركسة بحيث ان عنصراً غير الجراكسة لم يتمكن من الوصول إلى العرش طيلة فترة حكمها، خلا حالة الخليفة العباسي «المستعين بالله» الذي ولي السلطنة سنة ٨١٥ هـ ولمدة لم تزد على ستة أشهر. حسماً للنزاع بين الأميرين المتزعمين «شيخ» و «نوروز» على إثر خلع السلطان فرج بن برقوق (٨٠٨ ـ ٨١٥ هـ)، ثم في الحالتين اللتين اعتلى فيهما السلطنة اثنان من الروم هما خشقدم (٨٦٥ ـ ٨١٢ هـ) و «تمربغا» (٨٧٢ هـ) الذي لم يلبث في السلطنة سوى ثمانية وخمسين يوماً.

ومهما يكن من أمر فإنه لم يكن ثمة فارق بين المماليك الجراكسة وأسلافهم المماليك البحرية، وكان التغيير على كل حال من سيىء إلى أسوأ، ذلك ان سلاطين الأسرة المملوكية الجديدة أصبحوا تحت سيطرة قواد الجماعات العسكرية أكثر

---

(١) ولي عرش السلطنة المملوكية بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤١ هـ/ ١٣٤١ م اثنا عشر سلطاناً من أبنائه وأحفاده وحكموا اثنتين وأربعين سنة تقريباً، نصفهم أقيل من السلطنة، ولم يمت منهم ميتة طبيعية سوى اثنين فقط.

من ذي قبل، وانقسم المماليك فرقاً، تمسكت كل فرقة بأسم سلطانها المتربع على العرش. وكان أهم ما يعنيهم ان يتولى السلطنة واحد من فرقتهم ليمكنهم تحقيق مآربهم بالسيطرة على شؤون الدولة. أما بعد موته أو خلعه فإن فرقته تبقى عاملاً قائماً بذاته من عوامل السياسة تشترك فيما يحدث في عصره من مؤامرات واغتيالات وثورات. ولم يستطع السلاطين كبح جماح جنودهم إلاّ نادراً. هذا وإن كثرة تغيير الحكام ترينا بجلاء كيف أن العرش لم يكن مستقراً، فقد حكم ستة من سلاطين البرجية (الجراكسة) لمدة مائة وثلاث سنوات[1] من مجموع عمر هذه الدولة البالغ ١٣٤ سنة ومعنى ذلك أن الإحدى وثلاثين سنة الباقية حكم فيها تسعة عشر سلطاناً أي أن كلاً منهم حكم أقل من سنتين (لم يحكم قانصوه خمسمائة سوى ثلاثة أيام).

ولم يكن خلق الحكام الجدد يختلف كثيراً عن خلق من سبقوهم، ومع أن الضعف كان يسود البلاد، فقلّما كان يوجد بينهم من يعشق الحرب، ولعل ذلك راجع إلى حد كبير إلى عدم اتصافهم بالهيبة والقوة. والواقع ان الجراكسة لم يكونوا جنوداً، بل أصحاب مشروعات ليس إلاّ، يعتمدون في تحقيقها على المؤامرات والخدع والحيل أكثر من اعتمادهم على

---

(١) إبراهيم طرخان: دولة المماليك الجراكسة ١٠ عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ١٥٢.

الحرب أو الشجاعة الشخصية، وذلك لرغبتهم بالاحتفاظ بالسلطة، كما ساد الفساد كثيراً خلال الفترة التي حكموا فيها، لا نستثني من ذلك النظام العسكري المملوكي، وانعكست مساوىء تلك الصراعات على جميع الميادين الإنتاجية والإدارية في العصر المملوكي الثاني.

هذا ونلاحظ ان حقائق معينة سيطرت على تاريخ الدولة المملوكية الثانية فيما يتعلق بولاية السلطنة وهي: محاولة إبقاء العرش المملوكي مشاعاً بين القادرين من أمراء المماليك، وتدبير المؤامرات والفتن للوصول إلى سدة السلطنة، وثالثها الحصول على موافقة الخليفة والقضاة بعد استقرار الأمر لتبرير الطريقة التي سلكها السلطان الجديد لتحقيق غرضه، ورابعها عدم العناية برغبات سائر السكان من حيث اختيار السلطان وتعيينه.

وما ان تستقر الأمور للسلطان الجديد حتى يبدأ العمل على تثبيت قواعد سلطنته بمكافأة أنصاره وأعوانه بمختلف الوسائل ومنها «نفقة البيعة» وهي مبالغ من المال ينفقها في الجيش المملوكي بحسب مراتب رجاله وعلى قدر طاقة الخزانة السلطانية، ومنها إقرار من يرى إقرار، في وظيفته أو ترقيته، فضلاً عن ملء وظائف الدولة في الداخل والخارج بالأنصار والأعوان. ويعبّر عن هذا أو ذاك في مصطلح العصر المملوكي، بالخِلَع، ويتضمن معنى الخلع أيضاً كسوة يمنحها السلطان الجديد لصاحب المكافأة في تلك المناسبة.

أما مجازاة الخصوم، فجرت العادة ان يلجأ السلطان الجديد للعزل عن المنصب او النفي، والأمثلة على ذلك كثيرة، على أننا نلاحظ، مع كل ما ذكرناه أن سلاطين دولة المماليك الجراكسة عملوا دائماً على حصر تلك المنازعات في دائرة داخلية بحتة، بحيث لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد أو الانتقاص من سيادة الدولة. وهكذا استمرت دولة المماليك حتى نهاية القرن الخامس عشر محتفظة بهيبتها ومكانتها في المحيط الدولي، فسارعت الدول التي تاخمت حدودها، تخطب ود المماليك رغبة منهم في التمتع بحمايتهم وطلب معونتهم، ولا سيّما بعدما بدأ التتار يكتسحون وسط آسيا وغربيّها.

كان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسية، وقد طفح عهده بالثورات والفتن، وذلك أنه خشي أمير حلب يلبغا منذ اوائل سلطنته وبالغ في إكرامه عند مقدمه إلى القاهرة لأن يلبغا لم يكن في قرارة نفسه راضياً عن سلطنة برقوق، ذلك أنه كان من كبار أمراء الأتابك يلبغا الخاصكي الكبير أستاذ برقوق في الوقت الذي كان فيه برقوق من صغار المماليك. ولم يلبث ان استشعر منه الخطر فاستقدمه إلى القاهرة وعزله عن نيابة حلب وسجنه في الإسكندرية وصادر أمواله، ثم عفا وسمح له بالإقامة في دمياط طليقاً، وأعاده إلى منصبه أخيراً، وذلك في عام ٧٨٩ هـ/ ١٣٨٧ م[1] وفي ذلك الوقت خرج

(١) إبراهيم طرخان: المصدر نفسه ص ١٥.

الأمير منطاش نائب ملطية على برقوق والتفّ حوله عدد كبير من التركمان، ورغم خطورة ثورة منطاش، فإن السلطان برقوق لم يكن يخشاها بقدر ما كان يخشى خروج يلبغا، لذا حاول استدراجه وقد بيت الغدر به للتخلص منه نهائياً. وفطن يلبغا للأمر فاعتذر عن الحضور بحجة انشغاله بإخماد ثورة منطاش[1]. وما لبث ان استولى على قلعة حلب وقبض على من يخشى أمره، ثم كاتب منطاش للانضمام تحت لوائه فقبل على الفور، وكذلك فعل عدد كبير من الأمراء. وحينئذ سلمت له حماة، فاستفحل أمره بالشام حتى دخل في طاعته نواب البلاد الشامية باستثناء قلعة دمشق ونيابة الكرك، وكذلك انضم إليه الأمير سولي بن ولغادر أمير التركمان ونعير أمير عربان الشام[2].

وساء موقف برقوق خصوصاً بعد ان لاقت الحملة التي ارسلها لقتال الثائرين عام ٧٩١ هـ/ ١٣٨٩ م الهزيمة على يد يلبغا وحلفائه ودخل الثوار دمشق واحتلوا قلعتها. وفي تلك الأزمة أخذ برقوق يتخبط في تصرفاته فهو تارة يحاول كسب الرأي العام في مصر بإلغاء بعض المكوس وإعادة الخليفة المتوكل إلى منصبه، بعد أن كان عزله وأحل محله الخليفة

---

(١) المقريزي: السلوك ج ٣، ق ٢ ص ٥٩٠ ـ ٥٩٢ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٢) المقريزي: نفس المصدر ص ٥٩٣ ـ ٥٩٧.

الواثق بالله، وتارة اخرى يطلب من الناس ان يحصنوا الدروب وأن يساعدوه في مقاتلة «العدو الباغي» يلبغا[1].

غير ان هذه الإجراءات لم تفلح في دعم مركز برقوق، بل لقد أخذ الأمراء والمماليك يتسربون من القاهرة لينضموا إلى جيش يلبغا الذي كان يقترب من القاهرة. في حين بدأ الطاعون ينتشر في القاهرة، مما جعل البلاد تغرق في الفوضى. فأسقط في يد برقوق وأسرع بالاختفاء في منزل خياط، في الوقت الذي دخلت جنود يلبغا الناصري القاهرة وسيطرت على القلعة[2].

وكان منتظراً ان يعلن يلبغا نفسه سلطاناً، بوصفه صاحب الدور الكبير في عزل برقوق، لكنه عندما لم يرَ إجماعاً على سلطنته، رأى من الحكمة ان يرشح لها حاجي بن الأشرف شعبان، فأعيد السلطنة التي عزله عنها برقوق، وتلقب بالمنصور بعد ان كان يلقب بالناصر في سلطنته الأولى[3].

وتولى يلبغا أتابكية العسكر، وقام على الأثر بحركة تطهير كالمألوف. وما لبث ان ألقي القبض على برقوق وجيء به إلى

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١١/ ٢٨٧.

(٢) المقريزي السلوك ٣/٢/٦١٥ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١١/ ٢٨٥ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢٧٣.

(٣) عاشور: العصر المماليكي ١٥٦ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢٧٤.

يلبغا فاكتفى بنفيه إلى الكرك، وأوصى نائبها بإطلاق سراحه إذا اشتعلت الفتنة بينه وبين منطاش[1] .

ولم تلبث الأيام ان أظهرت للناس فساد حكم يلبغا، إذ حجر على السلطان حاجي وعين لنفسه أجود الإقطاعات، فيما اختص حليفه منطاش بإقطاع صغير، ناقضاً اليمين التي أقسمها لمنطاش من قبل، بأن يكون الاثنان شيئاً واحداً. لذا بدأ الشقاق بين الرجلين[2] وتحول إلى صراع بينهما، فحانت الفرصة لبرقوق الذي بايعه أهل الكرك بالسلطنة سنة ١٣٨٩ م والتف حوله الجراكسة من مصر والشام فكوّن منهم جيشاً زحف به إلى دمشق[3] .

أما منطاش الذي آلت إليه السلطة في مصر عندئذ بعد انتصاره على يلبغا الناصري، فقد وجد نفسه أمام خطر جسيم، فأخذ يتحايل على جمع المال بمختلف الطرق ليعد جيشاً يحارب به برقوق في الشام. وعقد مجلساً حضره الخليفة المتوكل وشيخ الإسلام والقضاة ومنهم ابن خلدون[4]،

---

(١) المقريزي: السلوك ٣/ ٢/ ٦٣٢ ابن إياس : بدائع الزهور ١/ ٢٧٧ .

(٢) ابن خلدون: العبر ٥/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢٨١ المقريزي: السلوك ٣/ ٢/ ٦٦٧ .

(٤) رحلة ابن خلدون ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

واستصدر منهم فتوى شرعية في أمر قتال برقوق، ثم أخذ يعد العدة للحرب، غير ان المماليك الذين أعدّهم منطاش للخروج، أظهروا بعض التمرد والعصيان لقلة ما أنفقه فيهم، وأخيراً في المحرم من عام ٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩ م. التقى العسكر عند شقجب بظاهر دمشق وانتصر برقوق وأسر السلطان حاجي والخليفة والقضاة الذين رافقوا جيش منطاش، في حين احتمى منطاش في دمشق، ثم عقد برقوق مجلساً من الخليفة والقضاة والأمراء، وأشهد على حاجي بخلع نفسه ومبايعة برقوق بالسلطنة(١). وعاد برقوق إلى القاهرة حيث استقبل أجمل استقبال، وجدّدت له البيعة في القلعة، في حين انزوى المنصور حاجي حتى مات مسموماً على أيدي جواريه.

وقد امتدت سلطنة برقوق الثانية من سنة ٧٩٢ إلى سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٠ ـ ١٤٠٠ م)، وامتازت بجهوده في تثبيت حكمه والتخلص من خصومه وعلى رأسهم يلبغا الناصري الذي قتله سنة ١٣٩١، ومنطاش الذي قتل في حلب سنة ١٣٩٣ م، وحمل رأسه الى القاهرة حيث طيف به في شوارعها قبل ان يعلق على باب زويلة(٢) كما عزل امراء المماليك الترك واحداً بعد آخر مما كانوا يلونه من وظائف

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) المقريزي: السلوك ٣/ ٢/ ٧٥٢ ـ ٧٥٣، ٧٨٦ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١٢/ ٣٣.

وصادر إقطاعاتهم ووزع هذه الوظائف والإقطاعات على مماليكه من الجراكسة[1]. على ان برقوقاً لم يفرغ نهائياً من المؤامرات والثورات حتى آخر سنة من حياته (٨٠١ هـ/ ١٣٩٩ م) إذ اضطر في تلك السنة إلى ان يقمع ثورة تزعمها الأمير نوروز الحافظي أمير آخور كبير[2]، وكان قبلاً قد اخضع سنة ١٣٩٤ ثورات العربان في مصر والشام، في حين بدأت ملامح خطر خارجي تبرز للعيان وتتمثل في الخطر التتري الجديد بزعامة تيمورلنك، لكن الصدام بين المماليك وتيمورلنك قد تأخر إلى ما بعد عهد برقوق لانشغال تيمورلنك بمهاجمة الهند.

ولي فرج العرش بعهد من أبيه برقوق وعمره عشر سنوات. وكان المفروض ان يمارس مجلس الوصاية، الذي أنشأه السلطان الراحل عام وفاته، برئاسة الأمير ايتمش البجاسي أتابك العسكر شؤون السلطنة[3] غير ان امراء المماليك الذين لم يؤمنوا يوماً بمبدأ وراثة العرش عن رضا ما لبثوا ان رأوا الفرصة سانحة لهم ليستزيدوا من نفوذهم على حساب السلطان الطفل، فبدأت المنافسات والمنازعات بينهم صبيحة اليوم

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١٢/ ٣٦ ـ ٣٩.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٩.

(٣) المقريزي: السلوك ٣/ ٢/ ٩٣٦ ـ ٩٣٧ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٣١٤.

التالي لولاية فرج، إذ امتنع الأمير سودون أمير آخور عن حضور الموكب السلطاني، فكان مصيره السجن. كما أنه في السنة التالية (٨٠٢ هـ/ ١٤٠٠ م) ثار عضو مجلس الوصاية الأمير تنم نائب الشام وانضم إليه نواب صفد وطرابلس وحماة وحلب فضلاً عن العربان والتركمان[١]. في القاهرة، وفي نفس العام، دبر الأمير يشبك الشعباني عضو مجلس الوصاية أيضاً مؤامرة ضد رئيس المجلس بأن أوحى للسلطان الطفل ان يقول انه اصبح راشداً ولا حاجة له بالوصاية وعقد مجلس للنظر في هذا الأمر أفحم فيه الأمير ايتمش، الذي غادر المجلس محنقاً لينضم إلى ثورة الأمير تنم بالشام. لكن قوات السلطة استطاعت ان تخمد هذه الثورة وتم القبض على ايتمش وتنم[٢] ورغم اخماد هذه الثورة فإن السنوات الست التي تلتها لم تكن أهدأ مما قبلها سواء في مصر أو الشام، فقد واصل تيمورلنك فتوحاته بعد ان عاد من الهند، فاستولى على سيواس ومرعش وغيتاب، ووصلت قواته إلى أطراف الشام[٣]. وأنزل الهزيمة بقوات المماليك التي تجمعت من نيابات الشام ودخل حلب سنة ١٤٠٠ م التي عملت جيوشه

---

(١) رحلة ابن خلدون ٣٤٧ - ٣٤٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٣١٩ - ٣٢٤.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ١/ ٣٢٦.

فيها قتلاً وأسراً ونهباً[1] وسار قاصداً دمشق. التي قدم إليها السلطان الصغير فرج ومعه الخليفة والقضاة. وقد اشتبك الجيشان المملوكي والتيموري ثلاث مرات دون نتيجة حاسمة[2] لكن هرب جماعة من أمراء السلطان فرج إلى القاهرة ليسلطنوا «لاجين» الجركسي، دفعته إلى مغادرة دمشق وتركها لقمة سائغة لتيمورلنك الذي دخلها بعد أمان أعطاه لوفد من قضاتها، كان ابن خلدون في عدادهم، لكنه تناسى أمانه بعد ان فتحت أبوابها وانتقم من دمشق شر انتقام. وأعقب ذلك صلح مهين عقده تيمورلنك مع فرج بعد سفارة بينهما سنة ١٤٠١ م، خرج بعده تيمورلنك من الشام لينزل الهزيمة بالسلطان بايزيد العثماني سنة ١٤٠٢ في موقعة أنقرة [3]. إلاّ ان البلاد الشامية اضطربت من أقصاها إلى أقصاها مرة أخرى بسبب ثورة نائب غزة وثورة الأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس واستعانته بالعرب والتركمان، وكذلك تنازع نوروز الحافظي نائب الشام مع جكم العوض نائب حلب. الأمر الذي جعل فرجاً يزهد في العرش ويهرب من القلعة سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م. وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز

---

(١) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٨٨ وما بعدها. عاشور: العصر المماليكي ص ١٦٠.

(٢) ابن خلدون: التعريف برحلة ابن خلدون غرباً وشرقاً ٣٦٧.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٣٣٦.

بالسلطنة[1] وتولى بيبرس الأتابك تدبير الأمور لصغر سن السلطان، وهذا ما أثار غيرة يشبك الشعباني الذي عاد إلى منصبه، فأخذ يتطلع إلى إعادة فرج. وهكذا اتخذ تنافس الأمراء المماليك صورة مؤازرة احد أبناء برقوق ضد الأخر. وقد عاد السلطان فرج إلى السلطنة بعد شهرين من اختفائه، واستمر تلك المرة في الحكم نحواً من سبع سنوات (١٤٠٥ ـ ١٤١٢ م) اتصفت بالاضطراب والفوضى وسوء تدبير الحكم، ذلك ان فرجاً عرف بالقسوة والوحشية، فاستهل حكمه بقتل أخويه[2]. وكان ان كثرت الفتن، وبخاصة في الشام. ففي سنة ١٤٠٧ م ثار جكم نائب حلب وأضفى على نفسه لقب سلطان وتلقب بالعادل، ولكنه قتل بعد شهرين[3]. وتحالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلنا الثورة على السلطان فرج وزحفا بجيوشهما نحو مصر سنة ١٤٠٨ م. وعندما خرج السلطان فرج لقمع تلك الثورة حلّت به الهزيمة قرب دمشق سنة ١٤١٢ وقبض عليه حيث قتل قتلة شنيعة، في حين أدى التنافس بين الأميرين شيخ ونوروز إلى إختيار الخليفة

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ٦٩٠.

(٣) مات جكم في حروبه ضد التركمان انظر ـ المقريزي: السلوك ٤/ ١/ ٤٢.

المستعين العباسي سلطاناً سنة ١٤١٢[١].

أما سلطنة الخليفة المستعين (من محرم إلى شعبان سنة ٨١٥ هـ/ ١٤١٢ م) فكانت اسمية بحتة، إذ لم يكد يطمئن شيخ إلى قوته حتى خلعه بحجة كثرة الاضطرابات وفساد العربان وحاجة البلاد إلى سلطان تركي، مع أنه ليس تركياً، وإنما هو جركسي. فتولى السلطنة في شعبان من ذلك العام. بعد ان قتل نوروز وتخلص من منافس عنيد[٢].

ويعرف السلطان المؤيد شيخ بالمحمودي نسبة إلى التاجر محمود شاه الذي باعه إلى السلطان برقوق. ويعتبر عهده هادئاً، بالقياس إلى عهدي فرج وأبيه، رغم خروجه مرتين لإخضاع الإمارات التركمانية وذلك في سنة ١٤١٥ وسنة ١٤١٧ م. وبوفاة السلطان شيخ المحمودي ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١ م تبدأ فترة تختلف في بعض نواحيها عن الفترة السابقة ويمكن تسميتها بفترة حكم الأوصياء واستبدادهم سواء أكانوا في منصب الوصاية على أولياء العهود الصغار أو بعد عزل هؤلاء الصغار وقيامهم بالملك اسمياً أو فعلياً.

بعد وفاة السلطان المؤيد شيخ سنة ١٤٢١ خلفه ابنه

---

(١) المقريزي: السلوك ٤/ ١/ ٢٢٣ - ٢٢٩ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٣٥٤ - ٣٥٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٢/ ٣ - ٤.

أحمد وعمره عشر سنوات تحت وصاية الأمير ططر، الذي لم يلبث ان انتزع السلطنة لنفسه، ولكنه لم يلبث فيها إلاّ أربعة وتسعين يوماً، إذ دبرت زوجته، وهي أم أحمد المخلوع، مقتله بعد أن طلقها غداة خلع ابنها، ومع ذلك لم يفلت من تدبيرها[1] وقد خلفه ابنه محمد (وكان في الحادية عشرة)بوصاية الأتابك جاني بك الصوفي، فانتزع برسباي الوصاية من الصوفي وسجنه، وكان برسباي يومئذ يشغل منصب أمير آخور صغير، وعقب على ذلك بخلع محمد بن ططر وتولى مكانه سنة ١٤٢٢ م. وقد وقعت هذه الحوادث في مدة لم تتجاوز سنة وشهرين تقريباً. وعهد برسباي هادىء بالقياس إلى غيره فضلاً عما امتاز به من أهمية خاصة في تاريخ مصر حربياً وتجارياً، رغم ما قاساه الناس في ذلك العهد بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وسياسة برسباي الاحتكارية. وقد مكّن ذلك الاستقرار الذي نعمت به دولة المماليك السلطان الأشرف برسباي الذي حكم ستة عشر عاماً (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨ م) من القيام بمشروع حربي كبير هو غزو جزيرة قبرص وإدخالها في نطاق التبعية لسلطنة المماليك في مصر بعد أن تم أسر ملكها حيث لم يطلق سراحه إلا بعد ان افتداه قنصل البندقية والتجار الأوروبيون وبعد ان أصبح تابعاً لملك مصر[2] .

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١٤/ ١٠٣ ـ ١٠٨.

(٢) عاشور: العصر المماليكي ١٦٣ ـ ١٦٩.

وبعد وفاة برسباي تولى ابنه يوسف السلطنة، وكان في الرابعة عشرة من عمره، بوصاية أتابك العسكر جقمق. فسلك خطة الأوصياء من قبله وعزل يوسف وتسلطن بدلاً منه سنة ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨ م. وقد عرف عن هذا السلطان تديّنه وورعه وتحريمه للمعاصي وشرب الخمور. ورغم ما اتسم به عهده من الهدوء النسبي، فإن ثورتين قامتا ضده في السنتين الأوليين من حكمه، تزعم الأولى قرقماش الشعباني أتابك العسكر في مصر، ودبّر الثانية نائب الشام، وانتهى أمر الثورتين بسجن الأتابك وقتل النائب. كما عبث العبيد السود بمنطقة الجيزة ونهبوها عام ٨٤٦ هـ/ ١٤٤٢ م وأقاموا لهم سلطاناً من بينهم، فقضى عليهم جقمق وأبادهم[١] وباع من في القاهرة منهم، في حين ارسل الباقين في سفينة إلى بلاد العثمانيين حيث بيعوا هناك.

وكما اشتهر عهد السلطان برسباي بغزو جزيرة قبرص، فكذلك اشتهر عهد السلطان الظاهر جقمق بغزو جزيرة رودس، إذ وجّه إليها ثلاث حملات في سنوات ١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤ م تمّ على أثرها الصلح بين الأسبتارية في رودس والسلطان بعد ان تعهد هؤلاء بعدم الاعتداء على السفن والمتاجر الإسلامية[٢] .

---

(١) إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ٣٥.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ٢/ ١٢٣٣ وما بعدها، العصر المماليكي ١٦٩ - ١٧٢.

توفي السلطان جقمق سنة ١٤٥٣ م، وهو في الثمانين من عمره، فخلفه ابنه المنصور عثمان غير أنه لم يستطع البقاء في العرش أكثر من شهر ونصف، فخلعه الجيش لأنه وزع عليهم النفقة بنقود مغشوشة غير سليمة.

وقد ولي السلطنة بعد المنصور عثمان السلطان الأشرف إينال (١٤٥٣ - ١٤٦٠ م) وقد اتصف عهده بكثرة خروج المماليك الجلبان وتمردهم واعتدائهم على الناس ونهب الأسواق، ففي سلطنته التي دامت ثماني سنوات، ثار خلالها الجلبان سبع مرات[١]، هذا عدا مؤامرة دبرت لخلعه اشترك فيها الخليفة حمزة عام ٨٥٩ هـ/ ١٤٥٥ م.

ولم يستطع أحمد بن إينال البقاء في الحكم سوى أربعة شهور ثم خلفه عام ١٤٦١ السلطان الظاهر خشقدم الذي امتاز عهده بالهدوء، الذي لم يعكر صفوه سوى المحاولة التي قام بها جانم بك نائب الشام لانتزاع السلطنة. لكن خشقدم استطاع في سهولة ان يتخلص من خصمه ويقتله[٢] وبعد خشقدم تولى السلطنة بلباي المجنون سنة ١٤٦٧ م، ثم الظاهر تمربغا الرومي في العام نفسه. ولم يستطع تمربغا إرضاء المماليك الخشقدمية وزعيمهم خير بك فعزله بعد شهرين وسجنه ثم جلس على سرير الملك بالقلعة خلال الليلة نفسها

---

(١) ابن إياس: صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ٢٨، ٥٧، ٦٥.

(٢) طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ٣٦.

وتلقب بالملك الظاهر تشبهاً بلقب استاذه الظاهر خشقدم، وسرعان ما أخذ يمارس شؤون السلطنة في جوف الليل ويتصرف تصرف السلاطين الحقيقيين لكن الأتابك قايتباي أسرع إلى القلعة وسيطر على الموقف، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذي أطلق عليه لقب «سلطان ليلة» لأنه لم يظل في العرش سوى ليلة واحدة [١] .

ويعتبر السلطان قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦ م) من أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة، لأنه حكم مدة طويلة بلغت تسعة وعشرين عاماً، وهي مدة لم يحكمها أحد من سلاطين المماليك عدا السلطان الناصر محمد. وفي تلك المدة أثبت انه أمهر السلاطين الجراكسة في ميدان الحرب. وأوسعهم خبرة في شؤون العالم، وأكثرهم مقدرة وشجاعة وحكمة حتى لقد وصفه ابن إياس بأنه كان وافر العقل، سديد الرأي، عارفاً بأحوال المملكة، يضع الأشياء في محلها، موصوفاً بالشجاعة، عارفاً بأنواع الفروسية [٢] . أقام العديد من المنشآت العمرانية إضافة إلى ترميم وإصلاح المنشآت التي أقامها أسلافه، كما عرف عنه حبه للرحلات والأسفار، فطاف في بلاد الشام وشمال الفرات والوجهين القبلي والبحري في مصر، بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين. وكان

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٢/ ٨٩ وما بعدها.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٣٢٥ (نشر محمد مصطفى).

أينما ذهب يخلد اسمه بإنشاء الطرقات والجسور والمساجد والمدارس والتحصينات وغيرها من المرافق العمرانية[1] .

غير أن مهاماً أخرى واجهت السلطان قايتباي، أكثر بكثير من الإنشاء والتعمير.، ذلك ان عدم استقرار الأوضاع على الحدود الشمالية سبّب دائماً مصاعب جمة لسلاطين المماليك الجراكسة. وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم تقتصر المتاعب التي واجهت دولة المماليك في تلك الجهات على الثورات التي قام بها التركمان، وإنما أدت القلاقل التي ظهرت في تلك الجهات إلى تدخل قوة جديدة هي قوة العثمانيين الذين أخذ نفوذهم يزداد ويتضخم، وخاصة بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م[2] .

ورغم حسن تدبيره وقوة الأمبراطورية المملوكية في عهده وانتصاراته على العثمانيين والتركمان، غير أن ثورات الجلبان وتكررها قد زهّدته في منصب السلطنة سواء له أو لابنه من بعده، ذلك انه لم يكن لهم من هدف سوى الحصول على النفقة دون نظر إلى حالة الدولة المالية أو التزاماتها الحيوية. وهكذا ظلت مشكلة قايتباي الداخلية في ثورات الجلبان، هذا عدا انتشار الوباء انتشاراً فتاكاً سنة ١٤٩٢ م، حتى انه كان يموت في القاهرة في اليوم الواحد اكثر من عشرة آلاف

---

(١) ابن إياس : نفس المصدر ٣٢٩.

(٢) عاشور: العصر المماليكي ص ١٧٥.

شخص. ثم ترتب على ذلك الوباء القحط الشديد وانتشار طاعون المواشي، مما أدى إلى ندرة القوت وغلاء الأسعار[1] .

توفّي السلطان قايتباي بعد ان جاوز الثمانين من عمره بعد ان تنازل عن السلطنة لابنه وذلك عام ١٤٩٦ م/ ٩٠١ هـ. وكان محمد بن قايتباي (١٤٩٦ ـ ١٤٩٧ م) في الرابعة عشرة من عمره فتولى قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير منصب الأتابكية واستبد بالسلطنة، فيما ساءت تصرفات السلطان الرسمي محمد بن قايتباي فكثرت الفتن والقلاقل في مصر ونياباتها في الخارج. غير ان قانصوه أطاح بزعماء الفتنة وعزل السلطان بحضور المجلس التقليدي وتولى مكانه ، غير ان سلطنة قانصوه كانت قصيرة الأجل لم تزد على ثلاثة أيام، إذ لم يعدم السلطان المخلوع أنصاراً له، ولا سيما خالد قانصوه، فحوصر المغتصب في القلعة، ولما يزل الخليفة والقضاة بحضرته، ولكنه أفلت من أيدي المحاصرين وهرب. وبايع نفس هذا المجلس محمد بن قايتباي للمرة الثانية (١٤٩٧ ـ ١٤٩٨) وأصبح فريسة استبداد المماليك الجلبان، فضلاً عن طيشه وسوء تدبيره. لهذا صمّم الأمراء على وضع حد لتلك الحال، ولا سيما الأمير طومان باي الدوادار الثاني واستمال المتبرمون خال السلطان إلى جانبهم فسكت عما

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٣٨٧.

دبّروه، وقتلوا السلطان، وكان عمره يوم مقتله سبع عشرة سنة. وتسلطن خاله قانصوه في ربيع الأول ٩٠٤/ تشرين الأول ١٤٩٨. وكانت سلطنته اسمية بحتة رغم قصرها وأصحاب السلطة الفعلية هم الأمراء الذين سلطنوه. وكل واحد يعمل لأجل مصالحه الشخصية ويطمع في السلطنة وفي مقدمتهم طومان باي الدوادار الذي تواطأ مع قصروه نائب الشام عام ٩٠٥/ ١٤٩٩. وقد نجح في حصار القلعة وامتلاكها فهرب قانصوه في زي النساء. ولم يجرؤ طومان باي على إعلان رغبته في شغل منصب السلطنة الشاغر في وجود الأمير جانبلاط أتابك العسكر. لذلك رشح هو الأمير جانبلاط للسلطنة على غير رغبة الأمراء (ذو الحجة ٩٠٥ هـ/ ١٥٠٠ م). وحاول جانبلاط استمال قصروه نائب الشام الخارج على طاعته بتوليته منصب الأتابكية الذي شغر بسلطنته، فكانت إجابة قصروه إعلان نفسه سلطاناً بالشام واتخاذ لقب الملك العادل.

أضحى طومان باي صاحب الأمر والنهي في دولة جانبلاط، وخرج على رأس حملة لإخضاع قصروه سلطان الشام، غير أن هذا الأخير تقدم إليه خاضعاً مستسلماً وفاوضه في أمر سلطنة طومان باي وعزل جانبلاط. وقد تمت مبايعة طومان باي بالشام بحضور قضاتها الذين كتبوا محضراً بخلع جانبلاط وتولية طومان باي بلقب المؤيد (جمادى الآخرة ٩٠٦ هـ/ كانون الثاني ١٥٠١ م) على ان يكون قصروه

الأتابك. كما عين السلطان المبايع في الشام قانصوه الغوري في منصب الدوادار الكبير والوظائف التي كان يليها طومان باي نفسه قبيل سلطنته.

زحف طومان باي بعد ذلك إلى مصر وحاصر القلعة. ولما كان محبوباً من الناس، قريباً من قلوبهم، فإن النساء كن يزغردن له من الطيقان[1]. وانتهى أمر جانبلاط بالسجن والخنق. وجدّد الخليفة المستمسك في مصر مبايعة طومان ولقب بالعادل بدلاً من المؤيد.

أحس طومان باي الأول ان قصروه يدبر له امراً فاستدعاه وجاهره بمخاوفه، ثم ألقى القبض عليه وخنقه، وأمور الغدر عادية مألوفة في ذلك العصر فليس فيها جديد أو شاذ لذا خشي الأمراء المحيطون به ان يحيق بهم ما حاق بأتابك العسكر قصروه فعجلوا بحربه وقتله بعد ثلاثة شهور وأيام فقط من سلطنته.

تولى قانصوه الغوري السلطنة في شوال ٩٠٦ هـ/ أيار ١٥٠١ م بعد تردد لأنه كان يخشاها. والغريب ان الأمراء في هذه المرة صاروا يتهربون من هذا المنصب الملطّخ بالدم، فكانوا يحيلونه على بعضهم البعض والكل يأبى ويرفض. ثم اتفقت كلمتهم على تولية الغوري الذي قبل المنصب بعد أن

---

(١) طرخان: مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة ٤٧.

أخذ عليهم العهود والمواثيق قائلاً «أقبل ذلك بشرط ألا تقتلوني، بل إذا أردتم خلعي وافقتكم»[1] . وتمت مبايعته بحضور الخليفة والقضاة والأمراء.

أثبت السلطان قانصوه الغوري انه رجل قوي صلب رغم انه كان قد جاوز الستين من عمره عندما ولي منصب السلطنة، ذلك انه عمل بسرعة على اعادة النظام والاستقرار إلى العاصمة وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية المستحكمة التي كانت تعانيها خزانة الدولة المفلسة، فاتبع سياسة تعسفية لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك. وكانت النتيجة ان الغوري حقق أغراضه وحصل على ما كان يرغب فيه من أموال ولكن على حساب الشعب الذي ازدادت حالته سوءاً وأخذ يئن من الضرائب الفادحة. وقد أنفق الغوري من تلك الأموال التي جدّ في جمعها، على مماليكه الذين أكثر من أعدادهم عن طريق الشراء، كما شيد مسجداً ومدرسة في الحي الذي نسب إليه فيما بعد «الغورية» كما عني بفخامة بلاطه وعظمة مظهره واشتهرت مجالسه الأدبية بمن ضمتهم من شعراء وأدباء وعلماء[2] .

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ٨٩، ٩٤ ـ ٩٥ عبد الوهاب عزام: مجالس الغوري.

ولم تحدث قلاقل ذات أهمية في الفترة الأولى من سلطنة الغوري، باستثناء بعض ثورات المماليك الجلبان والعربان. أما في الميدان الخارجي، فكان الخطر الكبير الذي هدّد مصالح البلاد في تلك الفترة آتياً من ناحية البحر الأحمر، ذلك ان فاسكو دي غاما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م، وسرعان ما ثبت البرتغاليون أقدامهم في كلكتا بالهند مما هدد مركز مصر الاقتصادي كطريق رئيسي للتجارة بين الشرق الأقصى والغرب الأوروبي. وإزاء هذا الخطر استنجد أمراء المسلمين في الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية بالسلطان الغوري، الذي لجأ إلى الأساليب السياسية فوجّه نداء إلى البابا يطلب منه منع البرتغاليين من التعرض بسوء للمسلمين في الشرق والغرب. وعندما لم تتأثر القوى الأوروبية بذلك التهديد، شيد الغوري أسطولاً جديداً في البحر الأحمر. وبعد أن انتصر المماليك في أول الأمر سنة ١٥٠٨ م، ثأر البرتغاليون لأنفسهم في العام التالي في موقعة ديو البحرية، بل لقد هاجموا عدن نفسها سنة ١٥١٣ م. وهكذا ضاعت مكانة مصر في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، الأمر الذي أدى إلى ذبول دولة المماليك ذبولاً سريعاً متواصلاً[١].

وثمة خطر آخر تفاقم في أواخر عهد الغوري وترتب عليه سقوط سلطنة المماليك نفسها. ونعني به خطر الأتراك

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٤/ ٨٢، ٢٨٦، ٤٥٨، ٤٦٦.

العثمانيين. وقد انصرف الغوري لمكافحته بكلية، لكن مماليكه لم يقدروا هذا الخطر وظلوا لا همّ لهم الاّ الحصول على المال والنفقة، حتى ضاق بهم الغوري ذرعاً. فهجر قلعة الجبل، وأقام بجزيرة الروضة ثلاثة أيام، وهو بصدد إعداد الحملة التي لم يعد هو نفسه فيها وذلك عام ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م. بلْ ان خيانة خاير بك والي حلب وجان بردي الغزالي نائب حماة تعد أخطر خيانة، على كثرة ما شهد العصر المملوكي من خيانات، إذ كانت الخيانات السابقة تنتهي بعزل السلطان أو قتله وتولية غيره، ولكن هذه الخيانة أودت بالسلطنة المملوكية وقضت على استقلالها.

مات الغوري في ميدان القتال في مرج دابق، وأسرع الأمراء باختيار نائب السلطنة طومان باي الثاني سلطاناً خلفاً للغوري. فتمنع في أول الأمر غاية الامتناع حتى قال له الأمراء «ما عندنا نسلطن إلاّ انت طوعاً أو كرهاً»[١] . ولم يقبل السلطنة الاّ بعد ان حلف له الأمراء «بأنهم إذا سلطنوه لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله»[٢] ، ومع ذلك فقد خذلوه وأفسدوا عليه جميع خططه التي وضعها لحرب العثمانيين وتفرق رجاله عنه، وخانه البدو والأعراب، فوجد نفسه وحيداً عاجزاً بعد هزيمة الريدانية سنة

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ٨٥.

(٢) ابن إياس: نفسه ص ٨٦.

١٥١٧، فاحتمى عند أحد مشايخ العربان، وكان بينهما صداقة قديمة. ولكن الشيخ خانه وأرسل إلى السلطان سليم العثماني وسلّمه إليه، حيث أعدم بتحريض من الخائنين خاير بك وجان بردي الغزالي، صلباً عند باب زويلة. وعلى هذا النحو انتهت سلسلة السلاطين الجراكسة وصارت مصر ولاية من ولايات الأمبراطورية العثمانية.

٢ ـ النشاط العلمي والتأليف التاريخي

أصبحت مصر على عصر سلاطين المماليك ميداناً لنشاط علمي واسع، يدل عليه ذلك الكم الفخم من الموسوعات الأدبية والكتب التاريخية والمؤلفات في العلوم الدينية التي تركها علماء ذلك العصر. ويربط السيوطي بين هذا النشاط العلمي الواسع في مصر بالذات على عصر المماليك وبين إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد أن سقطت في بغداد ويقول انه منذ إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، غدت هذه البلاد «محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء»[١] .

والواقع انه ما كان لهذا النشاط العلمي ان يزدهر في مصر في عصر المماليك لولا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء، وقد وصف أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس بأنه «كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول سماع التاريخ

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ٢/ ٨٦.

أعظم من التجارب»[1] ، وهكذا عاد الجامع الأزهر في عهد الظاهر بيبرس إلى سابق عهده، قصبة لطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. كذلك وجد من سلاطين المماليك، كالسلطان الغوري، من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين او أكثر كل اسبوع، وقد بحثت تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية التي تناقش فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء[2] . كذلك نسمع عن بعض أمراء المماليك وأبنائهم في مصر انهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية، بل تصدّى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم[3] .

والعصر الذي تمثلت فيه كل أنماط التدوين التاريخي هو عصر سلاطين المماليك (١٢٧٠ - ١٥١٧ م) الذي كان بمثابة المعرض الحي لتاريخ كتابة التاريخ في إطار الحضارة العربية الإسلامية. والواقع ان مصر والشام قد شهدت في ذلك العصر نشاطاً ثقافياً واسع النطاق. لقد كان عصر السلاطين المماليك آخر عصور الحضارة العربية الإسلامية، وكان التوهج الثقافي والعلمي فيه بمثابة خط الدفاع الأخير عن الثقافة العربية الإسلامية. فقد أدّت الظروف التاريخية التي أحاطت بالعالم

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧/ ١٨٢.

(٢) عبد الوهاب عزام: مجالس الغوري ص ٤٩.

(٣) السخاوي: التبر المسبوك ٢٢١، ٤١٥.

الإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى ظهور دولة سلاطين المماليك في مصر والشام لتقوم بدور القوة المدافعة عن العالم الإسلامي على مدى ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان. وفي ظل الأمن والحماية التي وفّرتها دولة سلاطين المماليك كانت مصر على نحو خاص مقصداً لعدد هائل من العلماء والمفكرين المسلمين من شرق العالم الإسلامي ومغربه، إذ أن الكوارث السياسية والعسكرية التي حاقت بدار الإسلام في المشرق والمغرب جعلت العلماء والمفكرين والفنانين يهاجرون إلى القاهرة.

لقد شهدت خمسينات القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) اجتياح المغول لبلدان الشرق الإسلامي، وقضت هذه الجحافل المغولية على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)، ومن ناحية أخرى كانت المساحة الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية تتراجع أمام زحف الإسبان والأوروبيين للقضاء على الأندلس. وإزاء المذابح التي تعرض لها المسلمون تزايدت أعداد المهاجرين إلى مصر والقاهرة من أبناء الأندلس، كما ان الظروف السياسية المتقلّبة دفعت عدداً من أبناء المغرب الإسلامي إلى أحضان القاهرة، ومن اشهرهم ابن خلدون الذي لم يكن حالة فريدة بين المهاجرين المغاربة. وكان الزمان ما يزال ينتظر بعضاً من أهم إنجازات الفكر والثقافة العربية في عصر سلاطين المماليك.

ولم يكن علم التاريخ بمنأى عن هذه التطورات والأحداث

بطبيعة الحال. فقد وصلت الكتابة التاريخية في ذلك العصر إلى قمتها في ظل الظروف الثقافية العربية الإسلامية، سواء من حيث التراكم والنمو المعرفي في التراث التاريخي نفسه، أو من حيث تطور مناهج البحث في الدراسة التاريخية التي خرجت من حيز الخبر والرواية المجردة إلى طور جديد، يهتم بمناقشة الأسباب في سياقها الوضعي. وزادت أهمية علم التاريخ باعتباره علماً ذا وظيفة ثقافية اجتماعية. وتبلورت فكرة التاريخ بشكل واضح حتى وجدنا من مؤرخي ذلك العصر من يكتبون في فلسفة التاريخ، والأسس النظرية التي يقوم عليها التدوين التاريخي، ومنهج البحث التاريخي، مثل ابن خلدون (ت ٨٠٩ هـ)، كما ظهر من علماء ذلك العصر من كتب في التاريخ.

وقد شهد هذا العصر النقلة النوعية الكبيرة الثانية في تطور مناهج البحث التاريخي، وهو الاتجاه الجديد الذي بلورته نظرياً، كتابات ابن خلدون، كما جسدته عملياً كتابات المؤرخين الذين تتلمذوا عليه وأشهرهم تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥ هـ). وتكمن أهمية ابن خلدون وكتاباته في آرائه التي طرحها في مقدمته الشهيرة عن علم التاريخ، إذ ان هذه المقدمة تضمّنت آراء ونظريات هامة تمثل حصاد التراث التاريخي على مر عصور الثقافة العربية الإسلامية. ولسنا بصدد تكرار ما هو معروف ومشهور من آراء ابن خلدون[1]

---

(١) حسين عاصي: ابن خلدون مؤرخاً.

ولكننا نقصد ان نوضح ان تطور مناهج البحث التاريخي وصل إلى مرحلة جعلت من الضروري مناقشة ونقد مناهج البحث التي قامت عليها أنماط الكتابة التاريخية المختلفة حتى ذلك الحين. وفي الحقيقة ان أهم تطور منهجي بلوره ابن خلدون في مجال الدراسات التاريخية هو البحث عن العلاقة السببية الوضعية في وقائع التاريخ نفسها أو في «أحوال العمران» على حد تعبيره. فقد بلور اتجاهاً جديداً في منهج البحث التاريخي يرفض الحكم على صحة الخبر بمعيار أخلاقي يعتمد على عدالة رواة الخبر، كما هو الحال في منهج الجرح والتعديل في الحديث النبوي، وإنما يجعل وقائع التاريخي واتساقها المنطقي ومطابقتها لقواعد الاستقراء والاستنباط، معياراً على صحة الخبر التاريخي.

ولم يكن هذا اتجاهاً جديداً ابتكره ابن خلدون، إذ ان المؤرخين المسلمين كانوا قد بدأوا في استخدامه بصورة أو اخرى منذ وقت مبكر، ولكن أهمية ابن خلدون تتمثل في قدرته على بلورة هذا التطور المنهجي في إطار نظري متكامل. فقد كان المؤرخون قد تجاوزوا منهج الإسناد الذي يعتمد على أخلاقيات الرواة منذ فترة طويلة قبل ابن خلدون، بل ان الطبري نفسه قد استخدم الوثائق والسجلات إلى جانب الاسناد في كتابه الشهير. وعلى مستوى الواقع كان علم التاريخ قد اصبح ممارسة علمية مستقلة عن العلوم الدينية ومناهجها، ولا سيما علم الحديث.

ومن ناحية اخرى لم يكن ما كتبه ابن خلدون إيذاناً بنهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة في مجال الدراسات التاريخية، ولم يكن ممكناً ان يحدث هذا. فقد استمرت الأنماط والمناهج القديمة سائدة إلى جانب المناهج الجديدة التي تبلورت في كتابات المقريزي الذي ابدى اهتماماً واسعاً بجوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وثمة نمط آخر من الكتابة التاريخية يمثله كتاب «الأعلام بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ» للسخاوي وهو كتاب تبريري مكرس للدفاع عن علم التاريخ وجدوى الدراسة التاريخية، كما يتناول تاريخ التاريخ ويقدم محاولة إحصائية لفروع الدراسة التاريخية. ولم يكن ابن خلدون والسخاوي فقط مهتمين بهذه النواحي المنهجية والنظرية في الدراسات التاريخية، وإنما شاركهما في ذلك عدد كبير من المؤرخين الذين ضمّنوا آراءهم في مقدمات كتبهم أو في طيّات صفحاتها، لكن ابن خلدون والسخاوي يتميزان بأنهما خصّصا كتابين لهذا الموضوع وحده.

لقد كانت كتابات مؤرخي العصر المملوكي تجسيداً لمدى التطور الذي احرزته الكتابة التاريخية، ومناهج البحث التاريخي، في التراث العربي الإسلامي. وقد أفرزت تلك الفترة عدداً من المؤرخين الأفذاذ، في مصر والشام، تجسّدت في كتاباتهم فكرة التاريخ، وعكست ايضاً مدى التطور الذي وصل إليه منهج البحث التاريخي.

وفي كتابات كل من بيبرس الدوادار الناصري (٧٢٥ هـ/

١٣٢٥ م) وأبو الفدا (٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) وابن فضل الله العمري (٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م)، وشمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ/ ١٣٤٩ م)، والقلقشندي (٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م)، وابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ/ ١٤٤٩ م)، والمقريزي (٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م) وابن تغري بردي (٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م)، وابن إياس (٩٣٠ هـ/ ١٥٢٣ م). وغيرهم نجد تراثاً متنوعاً مثيراً في أنماط الكتابة التاريخية، كما نلحظ تفاوت مناهج الدراسة التي تدل على ان المناهج القديمة كانت ما تزال تصول وتجول إلى جانب المناهج القديمة. ومن البديهي ان هذا التراث المتنوع من الكتابات التاريخية الذي حفظه لنا عصر سلاطين المماليك قد عكس تطور العلم التاريخي من حيث المستوى المعرفي ومناهج البحث والدراسة على حد سواء. وتكشف دراسة هذا التراث عن أن العلاقة بين علم التاريخ ومناهج البحث فيه كانت علاقة جدلية، فبقدر مساهمة المناهج في بناء العلم بقدر ما كان التطور المعرفي يساعد على تطوير مناهج البحث وطرق البحث وأساليبه. وكانت تلك قمة تطور الدراسات التاريخية في تراث الثقافة العربية الإسلامية، فمنذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) اكتسبت الرواية التاريخية طابع السرد وتسجيل الشهادات التاريخية، أو إعادة ما كتبه المؤرخون السابقون بصورة اجترارية. وكان ذلك في حقيقة الأمر انعكاساً لتدهور عام ألمّ بالحضارة العربية الإسلامية عامة.

الفصل الثاني

ابن إياس المؤرخ: سيرة حياته ومؤلفاته

١ - سيرة حياته

هو أبو البركات زين الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن إياس الحنفي، الجركسي الأصل الناصري القاهري[١]. ولد في القاهرة سنة ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م[٢] وتوفي

(١) كتب ابن إياس اسمه بخطه في النسخ المعروفة من كتابه كما يلي: محمد بن إياس الحنفي، ولكن بروكلمان أورد اسم ابن إياس كاملاً كالآتي: أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الدين (أبو شهاب الدين) الناصري الجركسي الحنبلي. وكرر نسبته إلى الحنابلة في ملحقه لكتابه تاريخ الأدب العربي ص ٢٠٥. وفي نسبته للحنابلة خطأ واضح يبيّنه أن حنبلياً لم يكن بين المعروفين من مشايخ ابن إياس.

(٢) يقول ابن إياس عن نفسه بين أخبار سنة ٨٥٢ هـ «وفي هذه السنة =

بعد سنة ٩٢٨ هـ/ ١٥٢٢ م[١] مؤخر عصر الانهيار المملوكي والسنوات الأولى من الحكم العثماني.

كان محمد بن إياس شحيحاً في ذكر الأخبار عن عائلته وعن نفسه، فلم يذكر منها سوى القليل من النتف المتواضعة، كتبها في بعض مناسبات مبعثرة في مواضع متفرقة من أجزاء كتابه الكبير «بدائع الزهور في وقائع الدهور» فهو لم يترجم لأحد من أفراد عائلته ترجمة وافية، بل ولم يترجم لنفسه كما فعل غيره من المؤرخين في عصره[٢]. والغريب اننا لا نجد أي ترجمة

= كان مولدي وذلك في يوم السبت سادس ربيع الأخر من السنة المذكورة، هكذا نقلته من خط والدي رحمه الله» ـ ابن إياس: بدائع الزهور ٢/ ٣٠ (طبعة بولاق).

(١) لا نستطيع تحديد تاريخ وفاة ابن إياس، ولكنه من المؤكد انه بلغ من العمر اكثر من ٧٦ سنة، وأنه توفي بعد سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) لأن آخر تاريخ كتبه بخط يده هو «يوم الأربعاء سلخ ذي الحجة الحرام سنة ٩٢٨ هـ» ليؤرخ به الفراغ من كتابة الجزء الحادي عشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور (مخطوط فاتح رقم ٤١٩٩) الذي ينتهي فيه المتن في هذا التاريخ ايضاً. هذا ولم يعثر بعد على الجزء الثاني عشر الذي اعلن عنه ابن إياس والذي يجب ان يبدأ المتن فيه بذكر أخبار سنة ٩٢٩ هـ ما يرجح انه توفي قبل الانتهاء من كتابته، أو ان مسودات هذا الجزء فقدت لسبب ما.

(٢) ترجم ابن حجر العسقلاني لنفسه في نهاية كتابه «رفع الإصر» وكذلك فعل السخاوي في «الضوء اللامع» الجزء الثامن ص ١٩٤، والسيوطي في «حسن المحاضرة» الجزء الأول ص ٣٣٥ ـ ٣٤٤.

وافية لدى المعاصرين او المتأخرين عليه، فلم يرد ذكره في قليل او كثير في مؤلفات السيوطي[1] وعبد الباسط بن خليل الحنفي[2]، وهما من أساتذة ابن إياس، ولا في مؤلفات السخاوي والغزي والبوريني والمحبي والمرادي، وهم أصحاب كتب التراجم والسير للقرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة. لذا فإن مبلغ ما يعتمد عليه من يريد ان ينشىء ترجمة له[3]لا يعدو تلك الإشارات للمؤلف عن نفسه وعن عائلته فيما ألّف. ويدل هذا القليل على انه يتحدر من أصل مملوكي يرجع إلى النصف الأول من القرن الثامن

---

(١) هو جلال الدين أبو الفضل بن أبي بكر بن محمد الخضيري الأسيوطي المصري الشافعي ولد سنة ٨٤٩ هـ وتوفي بالقاهرة ٩١١ هـ، من كتبه: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وتاريخ الخلفاء، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة..

(٢) هو سليل اسرة مملوكية معروفة، والد خليل بن شاهين مؤلف كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك الذي تناول فيه الدستور المملوكي والوظائف الحربية والإدارية في دولة المماليك البرجية. ولعبد الباسط كتاب مطبوع بعنوان «عمدة الطالبين ورغبة الراغبين» في الفقه أما كتبه الأخرى فلا تزال مخطوطة.

(٣) نجد ترجمة ابن إياس في عدد من المراجع منها الموسوعة الإسلامية بالفرنسية (جزء ٣ ص ٨٣٥ ـ ٨٣٧) ومؤرخو مصر الإسلامية: عنان (١٥٢ ـ ١٦٨) ومؤرخو مصر في القرن التاسع الهجري لمصطفى زيادة (٤٦ ـ ٥٥). ومقدمة محمد مصطفى لـ «صفحات لم تنشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور».

الهجري، فقد كان الأمير عز الدين ازدمر العمري[^(٨)] الناصري المعروف بأبي ذقن والشهير بالخازندار، جد والدة الشهاب أحمد، والد المؤرخ ابن إياس، من مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وكان طبيعياً ان يترقى ازدمر العمري في عهد أستاذه الناصر محمد إلى الوظائف العالية ويتدرج فيها حتى بلغ وظيفة أمير سلاح أيام السلطان الناصر حسن[٢]. ثم

---

(١) العمري نسبة إلى تاجر المماليك الخواجا عمر الذي جلبه وخشداشه اتابك العساكر الأمير شيخو العمري الناصري، الذي قتل سنة ٧٥٨ هـ/ ١٣٥٧ م، فاشتراهما منه السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وإليه ترجع نسبة الناصري، ويتبين هذا من قول ابن إياس بأن ازدمر العمري الناصري كان «خشداش سيخو من تاجر واحد». ولكن بعض مؤرخي ذلك العصر قد حرفوا نسبة العمري فجعلها ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة ص ٣٥٥ رقم ٨٨٢ «المعزّي» وهو خطأ واضح، كما جعلها ابو المحاسن في النجوم الزاهرة جزء ٩ ص ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨ «العزّي» راجع ايضاً ـ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢٠٢، ٢٢١ (طبعة بولاق).

(٢) هو رئيس السلاح الدارية من المماليك السلطانية، يوكل إليه أمر الأسلحة السلطانية، وحمل سلاح السلطان في المواكب العامة ويلي أتابك العسكر في المكانة، وهو من طبقة امراء المئين ومقدمي الألوف وخدمة كل واحد منهم مائة فارس يسير بهم إلى جيش السلطان في الحروب وهو مقدم على الألف جندي في الحلقة. (القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ١٤) (المقريزي: المواعظ والاعتبار) (الباز العريني: المماليك ١٤٨ ـ ١٤٩) (محمود رزق سليمان: عصر سلاطين المماليك ٨٧).

ان السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان (١٣٦٣ م - ١٣٧٦ م) نقله نائباً لطرابلس في أول حكمه ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٤ م بعد نيابة صفد[١] . وولي نيابة حلب ايضاً، حتى أعاده الأشرف إلى إمرة السلاح بالديار المصرية[٢] ، وأنعم عليه بتقدمة ألف في سنة٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦ م. وبقي كذلك إلى ان قبض عليه في صفر ٧٦٩ هـ/ ١٣٦٦ م وأرسل إلى الشام ليسجن بالصبيبة[٣] . وفي سنة ٧٧١ هـ/ ١٣٦٩ م أفرج عنه السلطان شعبان، وأحضره إلى القاهرة ليوليه نيابة الشام، ولكنه مرض وتوفي في شهر ربيع الأول من هذه السنة. ويقول ابن إياس عنه إنه كان: «أميراً جليلاً معظماً مبجلاً... وله أوقاف على الحرمين الشريفين، وإنه لما كان نائب حلب، انشأ خاناً يعرف بخان سراقب»[٤] .

أما جد المؤلف لوالده الأمير إياس الفخري الظاهري فكان

---

(١) حكم الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون للمرة الأولى من ١٣٤٧ - ١٣٥١ ثم للمرة الثانية ١٣٥٤ - ١٣٣٦.
- ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢٠٢، ٢٢١ (طبعة بولاق).

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٩/ ١٩١، ١٩٣، ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢١٣ (طبعة بولاق).

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٩/ ٣٠٦. ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢٢١ (ط. بولاق).

(٤) أبو المحاسن: النجوم ٩/ ٢٠٨، ٢١١، ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢٢١ (ط. بولاق).

أحـد مماليك السلطان الظاهر برقوق، وترقى في عهد استاذه هذا إلى ان وصل إلى رتبة الدوادارية الثانية أيام ابنه السلطان الناصر فرج[١] . ومن المرجح ان إياساً الظاهري قد توفي بعد سنـة ٨٣٠ هـ/ ١٤٢٧ م[٢] ، ويقول ابن إيـاس عن والده شهاب الدين أحمد بن إياس انه كان من مشاهير أولاد الناس. وأولاد الناس اصطلاح مملوكي جرى على الألسن للدلالة على أبناء الأمراء الذين عاشوا في بيوت الإمارة لا الطباق والتربية الحربية الخشنة. على ان هذه الفرقة أسهمت في الحـروب بسهمها المتعيّن عليها. إذ كان الواحد من أولاد الناس أميـر خمسة وعليه ان يتقدم إلى جيوش السلطان بخمسة مماليك. وعلى هذا فأبناء الناس من المماليك وأحفادهم لم يكونوا من الجند ولكن من الموسرين بما ورثوا، ومن طبقة خاصة بمـا تميزوا به عن أبناء الشعب العادي، حيث جرت العادة ان يُعطى الواحد منهم إقطاعاً يتناسب مع رتبـة أمير خمسـة في النظام الحربي المملوكي، رعاية لسلفه، بشرط ان يندمج في الرديـف السلطاني ويكون صالحاً للخدمة في إحدى الوظائف المدنية الصغـرى زمن السلم[٣] ، وكان كثيـر العشرة لأمـراء الدولـة

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢٢٥ (طـ. بولاق).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٤/ ٤٧
والدوادار الثاني من أفراد طبقة الطبلخانة وهم الطبقـة الثانيـة من الأمراء، ونصيب كل منهم في جيش السلطان أربعون فارساً.

(٣) محمد مصطفى: صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٥.

وأربابها، وأنه بلغ من العمر نحو أربع وثمانين سنة، أنجب فيها خمسة أولاد بين ذكور وإناث، عاش منهم ثلاثة: المؤلف، وأخت له وأخ هو الجمالي يوسف. وتوفي شهاب الدين في ١٣ شعبان سنة ٩٠٨ هـ (١٠ شباط ١٥٠٣ م) أما الأخت فكانت زوجة للأمير قرقماس المصارع، وكان أمير آخور رابع وأحد أمراء العشرات، قتل في معركة ألْبِيرَه في سنة ٨٧٧ هـ/ ١٤٧٣ م حيث انتصر الجيش المملوكي بقيادة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار[1] على جيش أوزون حسن (حسن الطويل) ملك التركمان المعروفين بأسم آلاف قيونلو (الشاة البيضاء). ويقول ابن إياس عنه: «وهذا كان صهرنا، وكان إنساناً حسناً ديناً خيراً موصوفاً بالفروسية والشجاعة، علّامة في الصراع»[2].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ١٥، ومادة ابن إياس في الموسوعة الإسلامية مقالة ابن إياس.

(٢) يشبك بن مهدي الدوادار، يعرف بالصغير، أصله مملوك للسلطان الظاهر جقمق، صار دواداراً زمن السلطان قايتباي، ثم أضيفت إليه الوزارة ومنصب الاستادارية سنة ٨٧٣. قتل أواخر رمضان عام ٨٨٥ هـ بمدينة الرها أثناء تعقبه سيف أمير آل فضل على يد بابندر نائب يعقوب بك بن حسن الطويل على هذه المدينة. ويوجد كتاب عن رحلته إلى آسيا الصغرى وما وراءها «رحلة الأمير يشبك الظاهري» لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٩٢ تاريخ.
ـ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ٢٠٤ ـ ٢١١. شاكر مصطفى: التاريخ والمؤرخون العرب ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

أما أخوه الجمالي يوسف فكان بالزردكاشية، أي هندسة المدفعية، على عهد السلطان قانصو الغوري. ويظهر أنه كان خبيراً بفنه، وبيده وظيفة رئيسة في عمله. ويذكر ابن إياس، على عادته، أخاه في تواضع تام ودون أي مباهاة بما أظهره من خبرة واسعة ومعرفة ودراية بفنه، بين أخبار شهر ذي القعدة سنة ٩١٦/ شباط ١٥١١، في حضرة السلطان الأشرف قانصو الغوري عندما طلع إليه الأمير أركماس بن ولي الدين، الذي كان نائب الشام، وقدَّم إليه قطعة صلبة أهداها إليه بعض العربان وقال عنها إنها من الفولاذ، وإنها صاعقة نزلت ببعض الجبال. ففرح السلطان بذلك وجمع السبّاكين الذين أجمعوا على صحة ذلك، فنظر إليه بعض «الزردكاشية» فأنكر ذلك وقال هذه من الحجر الصلب، فلما سمع السلطان ذلك شقّ عليه ونزل إلى الميدان وجمع السباكين. وحضر الأمير اركماس ووضعوا الحجر في النار ولكنه تفتت «فخجل الأمير اركماس من ذلك وانتصف عليه ذلك الزردكاش وهو الجمالي يوسف أخو مؤلفه وعُدّ ذلك من النوادر»[1] .

نشأ محمد بن إياس في أسرة ذات يسار عنيت بتنشئته، فتيسّر له ما تيسر لأبناء طبقته من دراسة علوم الدين وبعض العلوم الأخرى مثل التاريخ وتقويم البلدان على مشايخ عصره وأئمة هذه العلوم وقد خص ابن إياس اثنين منهما بالذكر هما

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٨٣.

من كبار علماء العصر: السيوطي وعبد الباسط بن خليل الحنفي المؤرخ والفقيه. وقد اتجه ابن إياس إلى التاريخ لأنه، كان على ما يبدو المركب الأسهل الخالي من ضرورات الإسناد كالحديث وتعقيدات الفقه، وقسوة اللغة وصعوبة فهم أسرارها، فمن الممكن ولوج باب التاريخ بأبسط من هذا وذاك من العدّة وذلك برصد الأحداث وتسجيلها المتسلسل. وهذا العمل في معظمه لا يكاد يحتاج إلى إعداد علمي مسبق يجاوز صوغ الجملة السليمة والصلة بمصادر الأخبار. وقد دخله أحياناً أناس اشتهروا بالتاريخ وإن لم يكونوا يحسنون الكتابة السليمة بالعربية.

وقد ظل ابن إياس معظم حياته متمتعاً بإقطاع وافر يدر عليه دخلاً كافياً، يرجح انه كان من لدن السلطان الغوري، الأمر الذي مكّنه ان يعيش عيشة راضية وأن يتوفّر على الكتابة والتأليف في التاريخ ونظم الشعر والزجل والمواويل والموشحات والمزدوجات. نعلم هذا ممّا كتبه[1] بمناسبة ان السلطان الغوري في جمادى الأخرة سنة ٩١٤/ ١٥٠٨ م، شرع يخرج إقطاعات أولاد الناس من أجناد الحلقة[2] وغير ذلك.. وصار ينعم بها على المماليك بمكاتبات... فحصل للناس الضرر الشامل ولا سيّما أولاد الناس الذين كان

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٤/ ٢٠٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٤/ ١٣٦، ١٥٠، ١٧٣.

المماليك يهجمون عليهم في بيوتهم ويأخذون منهم مناشيرهم غصباً ويبهدلونهم بالضرب». ثم يقول ابن إياس عن نفسه «وأنا من جملة من وقع له ذلك وخرج إقطاعي لأربعة من المماليك» ونظم في ذلك:

يا مالك الملك يا من بالعباد ألطف
دبّر عبيدك وأصلح دولة الأشرف
كم من أقاطيع أخرجها وما أنصف
وأطغى المماليك ذا يهجم وذا يخطف

وهكذا تعكّر صفو حياة ابن إياس المطمئنة عندما تأزمت أحوال السلطان الغوري لضيق سبل المال اللازم للصرف على مماليكه، فعمد إلى إخراج أولاد الناس، من أجناد الحلقة عن إقطاعاتهم وقطع الأرزاق الأحباسية والأوقاف عن أهلها، وأطلق لمماليكه العنان ليهاجموا أصحاب تلك الإقطاعات في بيوتهم ويأخذوا منهم مناشيرها غصباً، وضرباً إذا احتاج الأمر إلى الضرب والإحراق والبهدلة. ونال ابن إياس من تلك الكارثة ما نال غيره من أبناء طبقته فذهب عنه إقطاعه الوافر، الذي أمكن ان يقتسمه أربعة من المماليك بمكاتبات سلطانية، والذي كان يعتمد عليه في معيشته. وقد حزن ابن إياس لفقد هذا المورد الرئيسي. غير أنه لم يبقَ مدة طويلة دون إقطاع، إذ وقف للسلطان الغوري أوائل سنة ١٥١٠ بقصّة يشكو فيها حاله، وقدّمها إليه وهو في طريقه للعب الكرة بميدان القلعة، فاستجاب السلطان شكاوته وردّ إليه إقطاعه. ومدحه ابن إياس

من أجل ذلك بقصيدة طويلة من نظمه المعتاد. يقول ابن إياس «وحصل لي منه غاية الجبر ونصرني على المماليك الذين كانوا أخذوا إقطاعي، فعند ذلك امتدحته بهذه القصيدة وذكرت فيها أشياء كثيرة مما وقع له من المحاسن وقدّمتها إليه على يد شخص من خواصه».

ثم أورد القصيدة من ٣٥ بيتاً مطلعها:

بالأشرف الغوري المفدا
اصبح ثغر الزمان باسم
يا قانصوه العلى قد را
فقت على من مضى وقادم

غير ان ابن إياس لم يكن من المعجبين حقاً بالسلطان الغوري وأعماله، يشهد على ذلك ما كتبه بصدده بعد وفاته في كثير من المناسبات في كتابه «بدائع الزهور»[1] . هذا وإن نظمه الشعر تارة لنقد أعمال السلطان. وأخرى ليمدحه بها

---

(١) كان أجناد الحلقة يعتبرون قلب الجيش المملوكي، فهم المماليك الذين كان ينشئهم السلاطين دون فئات مماليك الأمراء. واعتبر ايضاً من أجناد الحلقة بعض ارباب الحرف والصنائع على أثر ضعف الجيش المملوكي إذ كان يعمد أفراده إلى بيع إقطاعاتهم إلى أهالي البلاد. ويعتبر البعض ان اجناد الحلقة تألفوا من أولاد الناس وأولاد السلاطين وأجناد المئتين للمزيد انظر انطوان ضومط: الدولة المملوكية ص ٥٦ ـ ٥٧، الباز العريني: المماليك ص ٥٣).

يعني انه كان حراً في كتابته، أميناً لرسالته، لا تؤثر فيه عوامل الظروف أو المناسبات، يحفظ الجميل ولا يحمل الضغينة لأحد أساء إليه، بل يعترف بالحق ويشيد به. وهذا ما نلاحظه في كتابته عن جميع السلاطين الذين عاصرهم والذين توالوا على الحكم في مصر مدة حياته، فإنه يسجل لهم «محاسنهم» كما يعدّ عليهم «مساوئهم». فبينما نراه يرثي السلطان الناصر محمد بن قايتباي بهذين البيتين من الشعر[1] :

يا قبر لا تظلم عليه فطالما
جلّى بطلعته دجى الاظلام
طوبى لقبر قد حواه كيف لا
يحكي السماء وفيه بدر تمام

نجده يقول عن هذا السلطان «وسار في المملكة أقبح سيرة، وليس له من المحاسن إلا القليل»، وينظم فيه هذين البيتين:

سلطاننا الناصر المفدى
أخبارهم نقل صحيح
بالجهل أضحى قبيح فعل
فلم يفسد شكله المليح.

ويدل هذا على ان ابن إياس لم تكن له صلة رسمية

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٣٩٣ - ٣٩٤.

بالبلاط السلطاني في أي وقت من الأوقات وأنه لم يكن من المقرّبين لأحد من السلاطين يحظى بمقابلته والتحدث إليه، فيؤثر هذا في شخصيته الحرة وما هو معروف به من التبصر والاتزان في أحكامه ونقده. كما لم يرد لنفسه من ناحية اخرى مع السلطان محمد بن قايتباي، مركزاً مشابهاً لمركز العيني[1] مع السلطان برسباي، أو كمركز أبي المحاسن[2] مع السلطان محمد بن جقمق.

ويتضح من أشعاره التي كتبها في مناسبات خاصة أو عامة، أنه عاش متتبعاً حوادث المجتمع الذي تقلّب فيه، وليس ذلك بصفته مؤرخه معنياً بتدوين الحوادث والأخبار فحسب، بل لأنه كان رجلاً حيّاً حساساً بما يجري في دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال؛ وربما كان أوضح دليل على هذه الحساسية فيه قصيدته بصدد ضرائب المشاهرة التي

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ٧١، ٨٨.

(٢) بدر الدين العيني من المؤرخين المشهورين في عصره أصله من عينتاب بين حلب وأنطاكية، جاء إلى القاهرة في أواخر القرن الثامن الهجري، ولي الحسبة عدة مرات بين ١٣٣٩ و ١٤٤٣. جعله السلطان برسباي قاضي قضاة الحنفية سنة ١٤٢٥ إلى جانب وظيفته كمحتسب (زيادة: مؤرخو مصر في القرن التاسع ص ٢٠ وما بعدها).

ألغاها السلطان الغوري في أواخر أيامه سنة ٩٢٢ هـ ومما قال فيها[1] :

قد سلطان الورى
بعد له في القاهره
مذ رخّص الأسعار
مع ابطاله المشاهره
كم جائع من فرحة
يدعو له مجاهره
يا ربّ فاجعل يده
بكل باغ ظافره

وكذلك مرثيته التي قالها في وقعة الفتح العثماني لمصر[2] ومنها:

جلّ الذي أفنى عساكر مصرنا
من دولة أتراكها من جركسي
وأثبت إلينا دولة الأروام من
اولاد عثمان ذوي الفعل المسي

---

(١) أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الظاهري الجويني، ولد سنة ١٤١١، كان بينه وبين السلطان جقمق صحبة قديمة ومحبة زائدة ومصاهرة.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ١٧ ـ ١٨.

قــتــلوا أكــابــرنــا بــأيــســر حــيــلة
عــمــلت عــليــهــم لا بــأسهــام الــقــسي
يــا لــيــت شــعــري دولــة الأتــراك هــل
تــأتــي كــمــا كــانــت ونــذكــر مــا نُــسي

وقد حج لين إياس سنة ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧ م دون ان يقوم على وظيفة معينة في الركب المصري، على انه شهد ما لقيه الحاج ذلك العام من عنت وغلاء وفناء بمكة، بسبب ما وقع وقت ذاك بين السلطان المملوكية وبعض المكيين كما لقي في هذه السفرة شدائد عظيمة من الغلاء وموت الجمال[1] .

والواقع ان ابن إياس كان على جانب من القدرة في النقد، فلم يقنع بسرد الحوادث والوقائع والوفيات على وتيرة اغلب السالفين من كتّاب التاريخ، بل وقف بين الحادثة والأخرى يشرح ويعقب ويفلسف مع شيء من القوة في الحكم. والجرأة في التقدير، والمغالاة في التصوير. وربما شجعه على ذلك اتصاله ببعض اعيان البلاط السلطاني في عهود مختلفة كالأمير تمراز الشمسي. والأمير اقبردي الدوادار الكبير، وكلاهما من رجال عصر قايتباي. وكأبي بكر بن مزهر وابنه البدري محمد، والقاضي محمود بن أجا. وهم ممن شغل وظيفة كاتب سر في الدولة، وهذا فضلاً عن صلته بأخيه الجمالي يوسف الذي أمدّه بما جرى بالقلعة من أخبار، ولا

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

سيما أخبار المدفعية التي عني ابن إياس بتدوينها والإشارة إلى إهمالها على عهد السلطان الغوري.

٢ - أخلاقه:

أما عن أخلاق ابن إياس، فلا سبيل لمعرفة ما اشتهر به من صفات عند معاصريه، ما دام الموجود من كتب المعاصرين والمتأخرين لا ينبىء عنه بشيء البتة. على ان الكتب التي ألفها، والملاحظات التي أودعها في هذه الكتب عن نفسه وعن حوادث عصره ورجاله تدلنا على الكثير من كنه شخصيته الكبيرة، فضخامة مؤلفاته برهان على انه ظل طوال حياته مجداً في الكتابة، ودؤوباً على تدوين الحوادث يوماً يوماً وشهراً شهراً في الأجزاء المعاصرة من تاريخه يشهد على دقة ملاحظاته وشدة استقصائه للحقائق، وقوته في الحكم على الناس تخبر بعلو مستواه الخلقي. وتناوله تاريخ الحكم العثماني في مصر بالنقد والسخرية احياناً لإهمال رجاله مصالح المصريين، بالرغم مما أحاط السيادة العثمانية في القاهرة من رهبة وخشية يعطيه مكانة سامية بين المؤرخين وغير المؤرخين. بل وربما كان موقفه من الحكم العثماني هو السبب في خفاء ترجمته من كتب التراجم.

٣ - شعره:

كان نظم الشعر في عصر ابن إياس من مستلزمات الأدباء

والمتأدبين، ودليلاً على مبلغ ثقافتهم وتأدبهم. وقلّما نجد مؤرخاً في هذا العصر لا ينظم الشعر أو لا يستعين به في مناسبات مختلفة سواء أكان هذا الشعر جيداً أو رديئاً. وكثيراً ما استعان ابن إياس بأشعاره من شعراء ذلك العصر للتعبير عن الانفعالات التي كانت تتولد في أعماقه بسبب حالة سياسية أو اجتماعية معينة، وتصلح كمصدر مهم يفيد مؤرخي الأدب، كما يفيد الباحثين في تاريخ مصر المملوكي من وجوه كثيرة.

٤ ـ مؤلفاته:

كتب ابن إياس خمسة كتب في التاريخ هي:

١ ـ «بدائع الزهور في وقائع الدهور»: ويبدو انه كان يخطط فيه لعمل تاريخ عام وإسلامي لمصر حتى عهده. وذكر فيه فضائل مصر وأخبارها منذ البدء حتى سنة ٩٢٨ هـ وسنفرد له دراسة تحليلية.

٢ ـ «جواهر السلوك في أخبار الأمم والملوك»: وهو مختصر الكتاب السابق. ومنه مخطوطات عدة في: كمبردج Qg ٧٤، وهي مخرومة الآخر في ٤٢٩ ورقة. وفي دار الكتب المصرية ٦٢٠٣/ تاريخ ف ٦٤٨، ومخطوط طوبقابو ٣٠٢٦ A ٦١٦٢ في ١٦٠ ورقة (في أحمد الثالث)، ومخطوط المتحف البريطاني رقم ٦٨٥٤ .Or. وفي الأزهر نسخة كتبت سنة ٩١٦ هـ، وأخرى في باريس رقم ٦٧٣٩.

وفي الكتاب تاريخ عام لمصر منذ الفتح الإسلامي حتى سلطنة الظاهر أبي سعيد قانصو سنة ٩٠٤ هـ، . ووفاة المتوكل على الله سنة ٩٠٣، وبلوغ المستمسك بالله أبي النصر يعقوب بن عبد العزيز بن يعقوب.

ومن الجدير بالذكر انه ثمة كتاباً بالعنوان نفسه مجهول المؤلف في المتحف البريطاني رقم Or. ٦٨٥٤.

٣ ـ «نشق الأزهار في عجائب الأقطار»: يقول في مطلعه «... لما طالعت كتب تواريخ الأمم الخالية. ورأيت ما فيها من العجائب المتوالية، فأحببت ان أجمع كتاباً أذكر فيه من أعجب ما سمعته وأغرب ما رأيته، قاصداً فيه الاختصار لكي لا يطول التأليف...» ولكنه ذكر فيه عجائب مصر وسير ملوكها، وطلاسم البرابي فيها، وأخبار النيل والأهرام، وخطط مصر وما قيل فيها وأقاليمها... وله مخطوطات عديدة:

في الرباط تحت رقم ٢٢ أو في ٢٢١ ورقة، وفي مكتبة المسجد الأقصى رقم ٥٨٩ عام في ٣٠٠ ورقة تقريباً. وفي المتحف البريطاني رقم Add ٧٥٠٣ في ٢٩٤ ورقة. ومنه في المكتبة الأهلية بباريس أربع نسخ تحمل الأرقام: A ٢٢٠٨ في ٤١٠ ورقات، و ٢٢٠٩ في ٣٨٠ ورقة، و ٢٢١٠ في ٥٤ ورقة، و ٢٢١١ في ٤٨ ورقة ومنه في استامبول بتركيا أربع نسخ هي: نسخة مكتبة رئيس الكتاب رقم ١٠١١ كتبت سنة ١٠٢٤ في

٣٣٥ ورقة، ونسخة مكتبة كوتاهية وحيد باشا رقم ٢٢٣٠ كتبت سنة ١٠٢٤ في ٣١٦ ورقة، نسخة نور عثمانية رقم ٣٠٣٩ كتبت ١٠١١ في ٢٤٤ ورقة، ونسخة حكيم أوغلي رقم ٨١٥ كتبت في القرن العاشر في ٣٩٤ ورقة.

٤ ـ «نزهة الأمم في العجائب والحكم»: ومنه نسخة نقلت عن خط المؤلف سنة ٨٠١، تليها أوراق في ذكر مدينة الفسطاط، مخطوطة في آياصوفيا رقم ٣٥٠٠، في ٢٨٠ ورقة، ومصور في جامعة القاهرة تحت رقم ٢٢٩٦٣.

٥ ـ «المنتظم في بدء الدنيا وتاريخ الأمم»: في ثلاثة مجلدات كاملة مخطوطة في أحمد الثالث باستامبول تحت رقم ٢٩٠٩. ويشكك بعض المؤرخين في نسبتها إليه لأنه مطابق لكتاب البدء والتاريخ. وينتهي مثله سنة ٣٥٥.

٦ ـ وثمة كتاب «مرج الزهور في وقائع الدهور»: وهو تاريخ شعبي للأنبياء والرسل. وقد لا يكون من تأليف ابن إياس.

٧ ـ «عقود الجمان في وقائع الأزمان»: وهو ملخص مستقل في تاريخ مصر يوجد منه مخطوط الجزء الثاني في مكتبة آياصوفيا باستامبول رقم ٣٣١١ بخط المؤلف، وأتم كتابته يوم الجمعة ١٧ من ربيع الأول سنة ٩٠٥. وهذه النسخة تشمل تاريخ مصر من سنة ٦٥٤ إلى سنة ٩٠٤.

الفصل الثالث

دراسة تحليلية لكتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور»

تأتي شهرة ابن إياس من كتابه التاريخي المعروف بـ «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، وهو بلا شك أهم مؤلفاته، ويحتل مكانة مرموقة بين كتب التاريخ التي صنفت في العصر المملوكي، وبخاصة الأجزاء المعاصرة، وتزداد القيمة العلمية للكتاب عندما يصف المؤلف وقائع الفتح العثماني لمصر والسنوات القليلة التي عاشها المؤلف في ظل النظام السياسي الجديد. ويشكل الجزء الأخير من كتاب بدائع الزهور المصدر العربي الوحيد عن تاريخ مصر في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الشرق العربي وعن تطور العلاقات بين العرب والأتراك العثمانية.

١ ـ الغرض من تأليفه وأقسامه:

كتب المؤلف فى مقدمة الجزء الرابع من كتابه (مخطوط

فاتح رقم ٤١٩٧) حسب تقسيم ابن إياس لكتابه هذا (القسم الأول من الجزء الأول ص ٣ ـ ٤ طبعة محمد مصطفى)، يفسر الغرض من تأليفه ويقول:

«الحمد لله الذي فاوت بين العباد، وفضل بعض خلق على بعض حتى في الأمكنة والبلاد، والصلاة والسلام على سيدنا أفصح من نطق بالضاد، وعلى آله وصحبه الأمجاد، وفّقنا الله لما يحبه ويرضاه، وجعلنا ممن يحمد قصده على دفع قضاه، وبعد فهذا جزء من كتابنا المؤلف في التاريخ الموسوم ببدائع الزهور في وقائع الدهور، وقد أوردت فيه فوائد سنية، وغرائب مستعذبة مرضية تصلح لمسامرة الجليس، وتكون للمنفرد كالأنيس، وقد طالعت على هذا التاريخ كتباً شتى نحو سبعة وثلاثين تاريخاً حتى استقام لي ما أريد، وجاء بحمد الله كالدر النضيد وفيه أقول:

طالع كتابي إن أردت مخبّرا
عن مبتدا خبر الدهور بما جرى
فتراه كالمرآة تنظر تعلما
ابد الزمان عجائباً بين الورى

وقد توخيت فيه أخبار مصر وأوردت ذلك شيئاً فشيئاً على الترتيب، قاصداً فيه الاختصار، فجاء بحمد الله ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وذكرت فيه ما وقع في القرآن العظيم من الآيات المكرمة في أخبار مصر كناية أو تصريحاً،

وما ورد فيها من الأحاديث الشريفة النبوية في ذكرها وما خصت به من الفضائل، وما فيها من المحاسن دون غيرها من البلاد، وما اشتملت عليه من عجائب وغرائب ووقائع وغير ذلك، ومن نزلها من أولاد آدم ونوح عليهما السلام، ومن دخلها من الأنبياء عليهم السلام، ومن ملكها من مبتدأ الزمان من الجبابرة والعمالقة واليونان والفراعنة والقبط وغير ذلك، ومن وليها في صدر الإسلام من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، ومن وليها من طائفة الأخشيدية والفاطميين العبيدية، ومن وليها من بني أيوب وهم الأكراد، ومن وليها من ملوك الترك والجراكسة إلى وقتنا هذا وهو افتتاح عام إحدى وتسعمائة، ومن كان بها من الحكماء والعلماء والفقهاء والمحدثين والقراء. ومن كان بها من الصلحاء والزهّاد، ومن كان بها من الشعراء وغير ذلك من أعيان الناس، وقد بيّنت ذلك في تراجمهم من مبتدأ خبرهم وذكر أنسابهم ومدة حياتهم إلى حين وفاتهم، حسبما يأتي ذكر ذلك في مواضعه على التوالي من الشهور والأعوام».

هذا ولم يعثر على نسخ الأجزاء الثلاثة الأولى من «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، ويظهر ان ابن إياس لم يكتبها إطلاقاً، وحتى إذا كان كتبها فإننا لا نستطيع ان نتصور مادتها، هل هي تاريخ مصر قبل الإسلام، وهو ما تحدث عنه بإيجاز في بداية الجزء الرابع، كما أشار إلى ذلك في مقدّمته له، أم هي ذكر بدء الخليقة وعجائب المخلوقات وقصص الأنبياء وما

يشبه ذلك وقد لاحظ محقق الكتاب ان هذا كله لا يملأ ثلاثة أجزاء من حجم أجزاء الكتاب.

ولربما تخيل ابن إياس موضوع هذه الأجزاء الثلاثة الأولى، عند كتابة مقدمته للجزء الرابع، على أمل ان يكتبها بعد الفراغ من تحرير هذا الجزء. والواقع انه كان واسع الخيال في مضمون هذه المقدمة ولم يقدر ما لديه من مسودات وما فيها من بيانات، بل ولم يفكر عند كتابتها فيما سوف يتضمن هذا الجزء الرابع من محتويات، أو فيما سيكون عليه حجمه، أو في عدد أجزاء الكتاب التالية لهذا الجزء، إذ نراه في مقدمته «وذكرت فيه (الجزء الرابع).. أخبار مصر... ومن وليها من ملوك الترك والجراكسة إلى وقتنا هذا وهو افتتاح عام إحدى وتسعمائة» أي انه كان يتصور ان هذا الجزء سوف يشمل تاريخ كل هذه السنين حتى سنة ٩٠١ هـ. ثم تبين له أثناء الكتابة بعد ذلك ما بلغته ضخامة حجمه فتوقف في الجزء الرابع عند أخبار سنة٧٤١ هـ (١٣٤١ م). وتلاه بأجزاء أخرى أورد بين محتويات الجزء التاسع منها أخبار سنة ٩٠١ هـ.

وقد كان المؤلف يأمل ان يخرج كتابه هذا في اثني عشر جزءاً انتهى الجزء الحادي عشر منها بأخبار سنة ٩٢٨ هـ إلى آخر يوم منها. وكان ابن إياس إذ ذاك في السابعة والسبعين من عمره ولا ندري هل عاجلته المنية قبل ان يبدأ في تحرير الجزء الثاني عشر أو أنه بدأه وكتب قسماً منه فقدت مسوداته ولم يعثر عليها.

أما الأجزاء الأخرى لكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور، فإننا نعرف منها الرابع والخامس والسابع والثامن والحادي عشر، وهي التي كتبها المؤلف بخط يده، والجزأين التاسع والعاشر المنقولين طبق الأصل تقريباً من نسخة المؤلف، وقسم من الجزء السادس في مخطوط فيينا.

٢ - مخطوطاته:

فيما يلي بيان النسخ المخطوطة لأجزاء من هذا الكتاب، وقد اختصر المتن في بعضها إلى النصف أو أقل من ذلك كما أوردها شاكر مصطفى في كتابه (التاريخ والمؤرخون العرب الجزء الثالث ص ١٩٦ - ١٩٧) ومحمد مصطفى في كتابه «صفحات لم تنشر من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور» ص ٢٥ - ٣٠.

أولاً: المخطوطات المحفوظة في متحف الأوقاف باستامبول وهي جميعها بخط المؤلف.

- المخطوط الأول رقم ٢١٤٩، من مبدأ التاريخ حتى ذكر طرف يسير من أخبار العرب من الجاهلية في ٢٨٢ ورقة.
- المخطوط الثاني رقم ٢١٥٠، جزء من أول سيرة النبي إلى أواسط الدولة العبيدية في ٢١١ ورقة.
- المخطوط الثالث رقم ٢١٥١: جزء من أول حوادث سنة ٧٨٩ إلى أول ذكر سلطنة الملك المنصور عز الدين في ٢٣٨ ورقة.

- المخطوط الرابع رقم ٢١٥٢: الجزء السابع من أول ذكر عود الملك الناصر فرج بن برقوق إلى السلطنة الثانية في رجب سنة ٩٠٢ في ٢١٢ ورقة.
- المخطوط الخامس رقم ٢١٥٣: من أول حوادث سنة ٨٩١ إلى ١٠ محرم سنة ٩١٤ في ٢١٨ ورقة.
- المخطوط السادس رقم ٢١٥٤: الجزء العاشر من أول حوادث سنة ٩١٣ إلى آخر الكتاب في ٢٣٢ ورقة.

ثانياً: أربع نسخ بخط المؤلف محفوظة في مكتبة جامع الفاتح باستانبول هي:

- فاتح ٤١٩٧، الجزء الرابع من الكتاب: يتناول التاريخ إلى سنة ٧٤١ هـ، فرغ المؤلف من كتابته يوم الأحد ١٢ محرم سنة ٩٠١، وبه ٢٥٥ ورقة.

كتب المؤلف في صفحة العنوان «الجزء الرابع من بدائع الزهور في وقائع الدهور تأليف كاتبه العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد بن إياس الحنفي عامله الله بلطفه الخفي والمسلمين أجمعين آمين».

وجاء في الصفحة الأخيرة «وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة على يد كاتبها ومؤلفها فقير رحمة ربه محمد بن أحمد بن إياس الحنفي عامله الله بلطفه الخفي وذلك يوم الأحد ثاني عشر شهر الله الحرام سنة إحدى وتسعمائة من الهجرة النبوية».

- فاتح ٤٢٠٠، الجزء الخامس: من سنة ٧٤٢ إلى سنة ٧٨٨ تمت كتابته يوم الاثنين ٢ من شوال سنة ٩٠١ وبه ٢١١ ورقة.

وكتب المؤلف في صفحة العنوان «الجزء الخامس من بدائع الزهور في وقائع الدهور تأليف كاتبه العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد بن إياس الحنفي..».

وفي الصفحة الأخيرة «وكان الفراغ من هذا الجزء المبارك على يد كاتبه ومؤلفه فقير رحمة ربه تعالى محمد بن أحمد ابن إياس الحنفي... وذلك في يوم الاثنين ثاني شهر شوال من شهور سنة إحدى وتسعمائة من الهجرة النبوية...».

- فاتح ٤١٩٨، الجزء الثامن، من سنة ٨٥٧ إلى سنة ٨٩٠، انتهى من كتابته يوم الأحد ٤ من ربيع الأول سنة ٩١٣ وبه ٢٣١ ورقة.

وكتب المؤلف في صفحة العنوان «الجزء الثامن من بدائع الزهور في وقائع الدهور تأليف كاتبه العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى محمد بن أحمد بن إياس الحنفي..».

وبدأ الصفحة الأولى بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين، أقول:

إذا نظرت لما ألفت فيه فقل
كم أول تارك علماً لذي خلف

يســتخـرج الــدر قــاريــه الــلبـيـب

كمـــا يستخـرج الغــايص الــدر من صــدف

«ذكر سلطنة الملك الأشرف أبي النصر سيف الدين إينال العلاي الظاهري... وفي الصفحة الأخيرة «وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة وتحريرها على يد كاتبها ومؤلفها العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد بن إياس الحنفي... وذلك يوم الأحد رابع ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وتسعمائة... وأقول فيه:

وتــاريــخ يــفــرق كــل هــم

ويــبــعــث كــل بــشــر بــعــد غــم

إذ ســرحــت طــرفــي فــيــه يــومــاً

رمــى شــيــطان أحــزانــي بــســهــم

- فاتح ٤١٩٩، الجزء الحادي عشر، من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨، فرغ من كتابته يوم الأربعاء سابع ذي الحجة سنة ٩٢٨ وبه ٢٦٢ ورقة.

وكتب المؤلف في صفحة العنوان «الجزء الحادي عشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور تأليف كاتبه العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد بن إياس الحنفي...».

وفي الصفحة الأخيرة «يتلوه الجزء الثاني عشر من بدائع الأمور (كذا) في وقائع الدهور. وكان الفراغ من هذا الجزء في يوم الأربعاء سابع ذي الحجة الحرام سنة ثمان وعشرين

وتسعمائة وذلك على يد كاتبه ومؤلفه فقير رحمة ربه تعالى محمد بن أحمد بن إياس الحنفي.

ثالثاً ـ نسختان منقولتان عن الأصل:

ـ باريس ١٨٢٤ بالمكتبة الأهلية (Arabe 686) الجزء التاسع من سنة ٨٩١ إلى سنة ٩١٢ مؤرخة في ٢٨ من ربيع الأول سنة ١١٢٧. ونقلت عن نسخة المؤلف التي فرغ من كتابتها يوم الاثنين ١٥ محرم سنة ٩١٤. وبها ١٦٧ ورقة وفي كل ورقة ٢٩ سطراً.

ـ لينينغراد بالمتحف الأسيوي مخطوط Rosen رقم ٤٦، الجزء العاشر من سنة ٩١٣ إلى سنة ٩٢١ مؤرخة في شهر رجب سنة ١١٢٧ ونقلت عن نسخة المؤلف التي انتهى من كتابتها يوم الاثنين مستهل المحرم سنة ٩٢٢، وبها ٣٠٧ ورقات، وفي كل صفحة ٢٩ سطراً. وهذه النسخة مكتوبة بخط يخالف خط النسخة السابقة.

رابعاً: نسخ أخرى لأجزاء من الكتاب اختصر فيها متن الأصل.

ـ فيينا بالمكتبة الأهلية (Fluegel 923 ; F. 274 = 454) من سنة ٧٨٥ إلى سنة ٨١٠، وبها ٢٠٧ ورقات. والظاهر أن هذه النسخة تؤلف قسماً من الجزء السادس للكتاب، ولكن اختصر فيها المتن حتى أخبار سنة ٨٠٠. ثم نسخ بتوسع فيما بعد ذلك أكثر منه في نسخة ليدن رقم ١٥. والراجح

أن الناسخ نقل هذا الجزء الأخير منها طبق الأصل تقريباً.

ـ باريس ١٨٢٢ بالمكتبة الأهلية (Anciens Fonds 595 A) وبها ٣٨٣ ورقة وتتألف من جزأين: الأول ورقة ١ ـ ٢١٦، ٢٢٥ ـ ٢٣٠) من سنة ١ إلى ٧٨٤، والثاني (ورقة ٢١٧ ـ ٢٢٤، ٢٣١ ـ ٢٣٨) من سنة ٧٨٥ إلى سنة ٨٥٧.

ـ باريس ١٨٢٣ بالمكتبة الأهلية (Ancien Fonds 595 B)؛ وبها ٣١٧ ورقة، منها الأوراق من ١ ـ ٨٤ آ تتناول تاريخ السنوات من ٨٥٧ إلى ٩٠٦ والأوراق من ٨٤ آ إلى ٣١٧، السنوات ٩٢٢ ـ ٩٢٨.

ـ باريس ١٨٢٥ بالمكتبة الأهلية (Ancien Fonds 689) الجزء الحادي عشر، من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨، وبها ٣٤٠ ورقة. والأوراق الأولى منها ناقصة.

ـ لندن بالمتحف البريطاني (Add. 18516) من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨ وبها ٣٧٧ ورقة.

ـ لندن بالمتحف البريطاني (add. 18515) من سنة ٧٨٤ إلى سنة ٩٠٦ وبها ٢٢٧ ورقة.

ـ ليدن (367 Warm, Dozy, Catal 832 = II 183) من سنة ٧٨٤ إلى سنة ٨٥٧ وبها ٢٥١ ورقة.

ـ روما بمكتبة الفاتيكان (Arabe 869) من سنة ٨٧٤ إلى سنة ٩٠٦ وبها ١٥٢ ورقة.

ـ نسخة المؤرخ نيكلسون في كامبردج (J.R.A.S, 1899, P 909) من سنة ٩٢٢ ـ ٩٢٨ وبها ٢٥٦ ورقة.

ـ استانبول، عاشر أفندي رقم ٢٣٢ من سنة ١ إلى سنة ٧٨١ وبها ٣٣٢ ورقة.

ـ استانبول، عاشر أفندي رقم ٢٣٥ من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨.

ـ استانبول بمكتبة غور لولي علي باشا رقم ٣٤٧ من سنة ٦٧٨ إلى ٨٢٥.

ـ استانبول بمكتبة غور لولي علي باشا رقم ٣٤٨ من سنة ٨٢٥ إلى سنة ٩٠٦.

ـ استانبول بمكتبة غور لولي علي باشا رقم ٣٤٩ من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨.

ـ استانبول بمكتبة داماد ابراهيم باشا رقم ٨٨٧ من سنة ١ إلى سنة ٨٦٥.

ـ استانبول بمكتبة داماد ابراهيم باشا رقم ٨٨٨ من سنة ٨٦٥ إلى سنة ٩٠٦ ومن سنة ٩٢٢ إلى ٩٢٨.

ـ القاهرة بدار الكتب المصرية (تاريخ رقم ٥٤٥) من سنة ٩٢٢ إلى ٩٢٨ وبها ٣٠٦ ورقات.

ـ القاهرة بمكتبة أحمد تيمور باشا (تاريخ رقم ٩٢) من سنة ٨٢٤ إلى سنة ٩٠٦ ومن ٩٢٢ إلى ٩٢٨).

ـ القاهرة بمكتبة أحمد تيمور باشا (تاريخ رقم ٢٣٣٧) من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨ هـ.

ـ القاهرة في مكتبة سليمان باشا أباظة من سنة ٩٢٢ إلى ٩٢٨ هـ.

ـ القاهرة بمكتبة الجامع الأزهر من سنة ٩٢٢ إلى ٩٢٨ هـ.

ـ القاهرة بمكتبة علي رفاعة من سنة ٧٨٧ إلى ٩٠٦.

ـ القاهرة بمكتبة الجمعية الخيرية الإسلامية وهي في مجلدين.

ـ القاهرة نسخة في مجلدين بمكتبة رأفت بك.

ـ بانكيبور بالهند (Oriental Public Library 1072) من سنة ٨٥٧ إلى ٩٠٦ وبها ٢٩٣ ورقة.

ـ مخطوط رقم ١٠٥٨ في كتابخانة دولت علية إيران، وهو ينقص صفحة العنوان. وفي نهايته كتب الناسخ يقول، انتهى ما أوردناه في هذا الجزء إلى آخر دولة الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق وذلك على سبيل الاختصار، يتلوه الجزء الثامن في أخبار دولة الملك الأشرف إينال العلوي. وكان الفراغ من هذه النسخة على يد كاتبها ومؤلفها العبد الفقير إلى الله تعالى محمد ابن أحمد بن إياس الحنفي لطف الله به وذلك يوم الخميس ثاني رجب الفرد سنة أربع وتسعماية/ ١٣ شباط ١٤٩٨ م. وإلى جانب ذلك كتب الناسخ: «انتهى إلى هنا

ما أوردناه من التاريخ المسمى ببدايع الأمور في وقائع الدهور» ولم يذكر الناسخ تاريخ انتهائه من نسخ المخطوط.

٣ ـ طبعاته:

ـ طبعة بولاق: أصدرت مطبعة بولاق سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٤ م طبعة من بدائع الزهور في ثلاثة أجزاء. يعالج الجزء الأول منها تاريخ مصر كله حتى سنة ٨١٥، في حين يعالج الجزء الثاني ما بين ٨١٥ إلى ٩٠٦ هـ أي حتى نهاية حكم العادل طومان باي، ويتضمن الثالث السنوات من ٩٢٢ إلى ٩٢٨ هـ / ١٥١٦ ـ ١٥٢٢ م، أي حتى نهاية حكم المملوكي الأخير الأشرف طومان باي. وقد سقطت من هذه الطبعة فترة حكم السلطان الغوري ٩٠٦ ـ ٩٢١ هـ / ١٥٠١ ـ ١٥١٥ م. وظلت هذه الفجوة قائمة حتى تبين بعد ذلك أن ما نشرته بولاق باسم بدائع الزهور كان ناقصاً ومشوهاً فكأنه مختصر للكتاب الأول أو موجز له وضعه ابن إياس نفسه بدليل أنه يشير في هذه الطبعة إلى أن من شاء أن ينظر ما وقع في الديار فلينظر إلى الجزء الخامس من تاريخنا بدائع الزهور، كما تبين أن الفجوة الناقصة موجودة في مخطوطات أخرى في لينينغراد وباريس تمتد ما بين سنة ٨٧٢ وسنة ٩٢٨ هـ / ١٤٦٧ حتى ١٥٢٢ م. أي تضم الفترة التي كان فيها ابن

إياس شاهد العصر المباشر. وقد نشرت هذه القطعة من البدائع بعناية جمعية المستشرقين الألمان، نشرها باول كاله الأستاذ بجامعة بون بمعونة محمد مصطفى مدرس العربية هناك، والمستشرق سوبرنهايم في مجلد من ٥٠٠ صفحة كبيرة (استامبول ١٩٣١ م). وبيّن في مقدمة له وبمقارنة النصوص، أن هذا المجلد هو الجزء المكمل لطبعة بولاق، وهو يستند الى مخطوط باريس رقم ١٨٢٤ A ومخطوط لينينغراد رقم ٤٦ في المتحف الاسيوي. ويضم الأول ما بين سنتي ٩١٣ - ٩٢١ هـ وهو منقول عن نسخة المؤلف، في حين يضم الثاني ما بين سنتي ٩٢٢ وآخر الكتاب.

وقد عاد المستشرق باول وزميلاه فنشروا في استانبول ١٩٣٢ نصاً جديداً لهذا القسم نفسه وصفوه بأنه الجزء الخامس. وفي النص فروق عديدة من حيث الاستيعاب أو المدى أو الترتيب. ثم قام العلماء أنفسهم بنشر نص آخر يتضمن تاريخ ما بين ٨٧٢ - ٩٠٦ أي من السنة نفسها التي توقف عندها ابن تغري بردي إلى مطالع القرن التالي (استامبول ١٩٣٦) وسموا هذا الجزء الثاني.

- حقّق محمد مصطفى بتكليف من جمعية المستشرقين الألمانية الأجزاء الخمسة المعروفة ونشرت في ستة مجلدات ضمن النشرات الإسلامية التي تصدرها الجمعية بمساعدة المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت كالآتي:

ـ المجلد الأول: وهو الجزء الأول ـ القسم الأول ويشمل المتن من أول الكتاب ويقع في ٥٩٦ + ٥٢ صفحة، القاهرة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ويتضمن هذا القسم الأول أخبار مصر وما ورد عنها في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية وأقوال العلماء والشعراء في أخبارها والتقسيم الجغرافي للبلاد وغير ذلك من أخبار وقصص متنوعة. ثم يبدأ بعد ذلك في ذكر أخبار الدول والأسرات التي حكمت مصر من فراعنة وأقباط، والولاة من قبل الخلفاء الراشدين والأمويين، ثم العباسيين، والدولة الطولونية والاخشيدية والفاطمية والأيوبية، ودولة المماليك الأولى، إلى أن ينتهي عند نهاية حكم السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجي ابن الناصر محمد بن قلاوون، الذي خلع من السلطنة في يوم الاثنين ١٤ من شعبان ٧٦٤ / ٢٩ أيار ١٦٦٣.

والمتن في هذا القسم نقله المحقق من مخطوط فاتح رقم ٤١٩٧، بأكمله، وعن الثاني والأربعين ورقة الأولى من مخطوط فاتح رقم ٤٢٠٠، والمخطوطان كتبهما المؤلف ابن إياس بخطه كما يذكر ذلك في صفحة العنوان لكل مخطوط، وأيضاً في خاتمة كل منهما.

ـ المجلد الثاني: وهو الجزء الأول ـ القسم الثاني ويشمل المتن من سنة ٧٦٤ إلى سنة ٨١٥ (١٣٦٣ ـ ١٤١٢ م) ويقع في ٨٢٨ صفحة + ٢٧ صفحة، القاهرة في ١٣٩٤ ـ ١٩٧٤. ويتضمن هذا القسم أخبار الفترة التي

تبدأ مع مبايعة السلطان الأشرف شعبان بن حسين ابن محمد بن قلاوون، وتوليه مقاليد الحكم في يوم الثلاثاء ١٥ من شعبان سنة ٧٦٤ هـ / ٣٠ أيار ١٣٦٣ وتنتهي بتنازل الخليفة المستعين بالله العباسي عن السلطنة في يوم الاثنين مستهل شهر شعبان سنة ٨١٥ / ٦ تشرين الثاني ١٤١٢. وأخبار هذه الفترة، التي وردت مفصلة في هذا القسم، نشرت في اختصار ملحوظ في طبعة بولاق، في ١٤٨ صفحة فقط (الجزء الأول من ص ٢١٢ - ٣٥٩).

والمتن في هذا القسم الثاني من الجزء الأول منقول عن مخطوطات فاتح ٤٢٠٠ من صفحة ٤٩ آ إلى نهاية المخطوط ص ٢٢١ ب (ص ٣ إلى ٣٨٣ من النص المطبوع)، وكذلك مخطوط ليدن من ص ١٢ آ إلى ص ٤٩ ب (٣٨٣ - ٤٧٦ من النص المطبوع)، وعن مخطوط فيينا من ص ٥٦ آ إلى نهاية المخطوط ص ٢٠٧ ب (٤٧٦ - ٧٨٩ من النص المطبوع)، وأخيراً من مخطوط ليدن من ص ١٠٥ آ إلى ص ١٢٠ ب (٧٩٠ إلى ٨٢٨ من النص المطبوع).

- المجلد الثالث: وهو الجزء الثاني، ويشمل المتن من سنة ٨١٥ إلى سنة ٨٧٢ / ١٤١٢ - ١٤٦٨ م، ويقع في ٤٧٦ + ٢٣ صفحة، القاهرة في ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.

وهذا القسم الذي يقع في خمسمائة صفحة، قد سبق نشره

في طبعة بولاق في تسع وثمانين صفحة فقط، الأمر الذي يؤكد أن طبعة بولاق نقلت عن نسخة، وردت فيها الأخبار والحوادث مبتورة وناقصة، مما يرفع من أهمية المعلومات والحوادث والأخبار التي ترد لأول مرة في هذا الجزء من تاريخ ابن إياس.

نقل محمد مصطفى المتن الوارد في هذا الجزء من صفحة ١ إلى صفحة ٣٠٦ وتشمل الفترة من سلطنة المؤيد شيخ سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م إلى نهاية سلطنة المنصور عثمان بن الظاهر جقمق في سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م عن مخطوطة ليدن. أما فيما يتعلق بالفترة التي تلي ذلك، وهي من بداية سلطنة الأشرف إينال في سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م إلى آخر سلطنة الظاهر تمربغا في سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م، وهي التي وردت من صفحة ٣٠٧ إلى نهاية الكتاب في النص المطبوع، فقد نقل المتن الخاص بها عن مخطوط فاتح رقم ٤١٩٨.

- المجلد الرابع: وهو الجزء الثالث، ويشمل المتن من سنة ٨٧٢ إلى سنة ٩٠٦ هـ / ١٤٦٨ - ١٥٠١ م. ويقع في ٤٧٧ + ٢٠ صفحة، القاهرة في ١٣٨٣ - ١٩٦٣ م.

نقل المحقق الصفحات من ٣ إلى ٢٢٢ من النص المطبوع عن مخطوط فاتح رقم ٤١٩٨ والصفحات من ٢٢٢ إلى ٤٧٧ من مخطوط باريس رقم ١٨٢٤. وقد راجع هذا المخطوط الأخير على متن مخطوط الفاتيكان رقم ٨٦٩

حيث نقل عنه ما وجده من عبارات قصيرة، كانت قد سقطت من الناسخ في مخطوط باريس، وإن كان المتن في مخطوط الفاتيكان قد اختصر فيه، كما أن الناسخ قد أخطأ في بعض ما نقله من أسماء أو مصطلحات، فأورده محرفاً عن الأصل.

ـ المجلد الخامس: وهو الجزء الرابع، ويشمل المتن من سنة ٩٠٦ إلى سنة ٩٢١ هـ / ١٥٠١ ـ ١٥١٥ م ويقع في ٤٩٢ + ٢٤ صفحة القاهرة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م. والفترة التي يتضمنها هي الفترة التي تسبق الفتح العثماني لمصر، وهي تنقص تماماً من طبعة بولاق، حيث لم يرد فيها ذكر شيء عن هذه الفترة الهامة. وقد نقل المحقق المتن عن مخطوط باريس رقم ١٨٢٤ وعن مخطوط لينينغراد رقم ٢٦.

ـ المجلد السادس: وهو الجزء الخامس، ويشمل المتن من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨ هـ / ١٥١٦ ـ ١٥٢٢ م. ويقع في ٤٩٤ + ١٢ صفحة، القاهرة في ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م. ويتضمن أخبار الفتح العثماني لسوريا ومصر وما تبع ذلك من تعديل وتغيير في شؤون الادارة والقضاء والسكة والموازين والعادات والتقاليد والزي والملابس وغير ذلك. وقد اعتمد المحقق في نشر هذا الجزء على المخطوط رقم ٤١٩٩ المحفوظ في مكتبة جامع الفتح باستامبول.

ومما يجدر ذكره أن الهيئة العامة للكتاب المصرية قد أعادت طباعة هذه المجلدات الستة بطريقة التصوير بعد نفاذ النسخ التي طبعتها منها بموافقة الجمعية العامة للمستشرقين الألمان.

٤ ـ ترجماته:

اهتم بابن إياس ودراساته التاريخية نفر من المستشرقين ومن المؤرخين المصريين المحدثين أمثال بروكلمان، وفولرز، وسوبرنهايم، وكاله، ومارغليوث، والدكتور محمد مصطفى المدير السابق لمتحف الفن الإسلامي في القاهرة والدكتور محمد مصطفى زيادة ومحمد عبد الله عنان.

أما المستشرق الفرنسي غاستون فيت G. Wiet الذي عمل عدة سنوات مديراً لدار الآثار العربية فقد ساهم أيضاً بالاهتمام بابن إياس وذلك بأن نشر ترجمة فرنسية لتاريخ بدائع الزهور من سنة ٨٧٢ إلى سنة ٩٠٦ وذلك في القاهرة سنة ١٩٤٥ ضمن مطبوعات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية. كذلك أدى اهتمام مدام ديفونشاير Mme Devenshire بالآثار إلى أنها قامت بترجمة السنوات ٨٢٥ هـ إلى سنة ٨٤١ هـ لحكم السلطان برسباي من كتاب بدائع الزهور إلى اللغة الفرنسية وذلك في مجلة المعهد العلمي الفرنسي رقم ٢٥ من صفحة ١١٣ إلى ١٤٥.

٥ ـ مباحثه:

يحتل كتاب «بدائع الزهور» لابن إياس مكانة مرموقة بين كتب التاريخ التي صنّفت في العصر المملوكي، وبخاصة الأجزاء المعاصرة، فهو عظيم الفائدة لمن يبحث في تاريخ مصر في عصر المماليك والعصر العثماني، في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والادارية والثقافية، ووقائع الفتح العثماني لمصر والسنوات ألتي تلته حتى وفاة مؤرخنا، حيث يشكل الجزء الأخير من كتابه المصدر العربي الوحيد عن تاريخ مصر في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الشرق العربي وعن تطور العلاقات بين العرب والأتراك.

أ ـ الأحوال الاقتصادية: عاصر ابن إياس السنوات الأخيرة من عمر سلطنة المماليك البرجية، حيث ظهرت بوضوح مظاهر التدهور الاقتصادية الذي شكت منه سلطنة المماليك في خريف عمرها، كما اتضحت كافة الوسائل التي تحايلت بها السلطة للحصول على المال، وذلك لإشباع خزائن السلاطين للمحافظة على بقائهم. وهو عندما يكتب عن هذه الفترة إنما يدوّن ما شاهده بعينيه وما سمعه بأذنيه. والواقع أن المتعمق في دراسة ما كتبه ابن إياس يضع يده، عن طريق مباشر أو غير مباشر، على مظاهر هذا التدهور العام، وعلاقة هذا التدهور بالعامل الاقتصادي. فنظام المماليك الذي بدأ محكماً يقوم على أساس طاعة المملوك لأستاذه وسلطانه، والقناعة التامة بما يخصص له من جامكية أو نفقة أو إقطاع تداعى بحيث غدا

المماليك الجلبان[1] أداة للعبث والعدوان على السكان الآمنين ونهب أموالهم وممتلكاتهم، والثورة بين حين وآخر على السلطان بدعوى عدم الرضا عما يخصّصه لهم من نفقة وأموال، مطالبين بالمزيد. من ذلك ما يذكره ابن إياس في حوادث ٨٩١[2] من أن المماليك صاروا «يقفون للأمراء بسلّم المدرّج ويقولون لهم: قولوا للسلطان ينفق علينا وإلاّ يقع منّا فتنة كبيرة، وصاروا يغلظون لهم القول». ويتبع ابن إياس ذلك ببيان أثر هذه القلاقل في الحياة الاقتصادية فيشرح كيف «اضطربت الأحوال ووزع أكثر الأمراء والناس حوائجهم في الحواصل، وغلقت الأسواق والدكاكين».

ويعود ابن إياس فيحكي كيف ثار المماليك عام ٨٩٨ هـ، فاضطربت الأحوال «واستمرت الدكاكين مغلوقة وكذلك الأسواق، والناس يرتقبون وقوع فتنة كبيرة..»[3].

ولم تسلم فئة من فئات المجتمع في ذلك الدور من أذى المماليك وفسادهم، فيروي ابن إياس في حوادث سنة ٩٠٤ هـ أنهم «رجموا الأمراء من الطباق بالحجارة، وكبّوا

---

(١) الجلبان هم مماليك السلطان الحاكم. وعن فئات المماليك انظر - الباز العريني: المماليك ٥٣ - ٥٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٢٣٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٢٩٥.

عليهم الماء المتنجس بالأقذار، وخطفوا عمائم الفقهاء. . .»[1] .

وقد بلغ من ضعف السلطان قايتباي أمام المماليك أنه كان يحضر المصحف الشريف بين يديه ليحلف العسكر والأمراء بأنهم لا يخونونه، وربما أدى عدم تبادل الثقة بين الجند والأمراء من ناحية والسلطان من ناحية أخرى إلى مطالبتهم السلطان بأن يحلف لهم مثلما حلفوا له «انه لا يمسك منا أحد بغير سبب»[2]. وحتى في أوقات الشدة والخطر، لم يستطع المماليك أن يكفوا أيديهم عن أذى الناس، فيروي ابن إياس في حوادث عام ٩٢٢ هـ[3] كيف أنه عندما نودي في العسكر للتجريدة وللخروج لمواجهة العثمانيين، ان المماليك «نزلوا من القلعة وأطلقوا في الناس النار، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار، وهجموا عليهم الحارات والبيوت» وكان من الطبيعي أن يترك ذلك أثره على الحالة الاقتصادية، إذ لم تلبث أن «أغلقت الطواحين قاطبة، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق، ووقع القحط بين الناس، وضج العوام وكثر الدعاء على السلطان، وغلّقت أسواق القماش من المماليك، واختفى الصنايعية والخياطون.

---

(١) بدائع الزهور ٣/ ٤٠٠.

(٢) بدائع الزهور ٣/ ٣٩٩.

(٣) بدائع الزهور ٥/ ٢٨.

واضطربت أحوال القاهرة، واختفى جماعة من التجار خوفاً من المماليك».

وثمة مظهر آخر من مظاهر التدهور الاقتصادي الذي أصاب البلاد، وهو إهمال مرافقها وتعرضها للخراب، من ذلك ما يذكره ابن إياس في حوادث سنة ٨٨٣ هـ[١] من انقطاع جسر أبي المنجا حيث «انقلب» عن آخره، فحصل للبلاد من تحته غاية الضرر، وغرق الكثير من أموال الناس والمقطعين». كذلك يحكي ابن إياس في حوادث سنة ٩٢٢ هـ[٢] كيف انقلب جسر الفيّوم وغرقت البلاد. وهكذا نسمع عن ظاهرة انهيار الجسور المقامة على النيل، بعد أن كانت هذه الجسور في الفترة السابقة تخضع لرقابة شديدة ورعاية مستمرة، وتفتيش بين حين وآخر من جانب الكشّاف وغيرهم. وإذا كان الاستقرار الاقتصادي لا بد له من قدر من الأمن، فإنه يفهم من تاريخ ابن إياس لهذه الفترة أن الناس لم يعودوا يأمنون على أرواحهم أو أموالهم. فبالإضافة إلى عبث المماليك بأرواح الناس وممتلكاتهم. كثر الزُّعر والفسّاد واللصوص دون أن تستطيع الحكومة كبح جماحهم. فابن إياس يروي في حوادث سنة ٨٨٨ هـ[٣] أنه «كثر قتل القتلى حتى أن شخصاً

(١) بدائع الزهور ٣/ ١٤٦.

(٢) بدائع الزهور ٥/ ٨.

(٣) بدائع الزهور ٣/ ٢٠٥.

من البياطرة قتل بالجزيرة الوسطى ولا يعلم من قتله، ووجد شخص من المماليك الاينالية مقتولاً بمنزله ولا يعلم من قتله، وغير ذلك جماعة كثيرة». أما حوادث اعتداء اللصوص بشكل مباشر على أسواق القاهرة وسرقة حوانيتها فصارت عديدة، ذكر ابن إياس الكثير من أخبارها في حوادث سنة ٨٩١ هـ، ٩٠١ هـ، ٩٠٥ هـ، ٩١٣ هـ، ٩١٨ هـ، ٩٢٢ هـ. ويبدو أن بعض تلك العصابات أو المناسر كانت كبيرة العدد، كثيرة العدة «من مائة نفر ما بين مشاة وركاب ومعهم قسي ونشاب...»[1] وفي معظم الحالات كان لا يعرف السارق، ولا يقبض على اللصوص، وتتم السرقة «دون أن تنتطح في ذلك شاتان» على قول ابن إياس.

وقد تركت هذه القلاقل أثرها في ارتفاع الأسعار بين حين وآخر. فابن إياس يذكر في حوادث سنة ٨٨٥ هـ كيف «ضاعت المصالح في أمور البضائع وغيرها، وزاد سعر الغلال ووقع بالقاهرة تشحيطة في الخبز»[2].

وإذا كانت هذه بعض مظاهر التدهور الاقتصادي في سلطنة المماليك البرجية كما تبدو من خلال كتابات ابن إياس، فإنه يمكن الوقوف على أسباب هذا التدهور من بعض

---

(١) بدائع الزهور ٣/ ٤٣٤.

(٢) بدائع الزهور ٣/ ١٦٥ وعن الأغلبية انظر أحداث سنتي ٨٨٩ و ٨٩١ هـ على سبيل المثال.

الحوادث المتناثرة التي دأب ابن إياس على ذكرها بين حين وآخر.

ومن هذه الأسباب انحلال نظام المماليك واختلال أمرهم حتى غدوا مصدراً للفوضى وعدم الاستقرار في البلاد. والمعروف عن المماليك أنهم كانوا في أول الأمر يجلبون صغاراً حيث تجري تنشئتهم وفق آداب وتعاليم معينة يشبون عليها من الصغر، ويلتزمون بها في الكبر[1] . ولكن مع افتقار سلطنة المماليك، دأب السلاطين على شراء المماليك كباراً، وقد تجاوزوا سن البلوغ لأنهم في هذه الحالة كانوا أرخص ثمناً من المماليك الصغار، وهؤلاء المماليك الكبار يصعب تعليمهم آداب السلوك وتغيير أسلوبهم الذي اعتادوه في صغرهم مما جعلهم أداة هدم وتخريب للدولة. وقد أطلق على هؤلاء المماليك المجلوبين كباراً اسم الجلبان. وتكاد لا تمر سنة واحدة من الخمسين سنة الأخيرة من عمر دولة سلاطين المماليك دون أن يشير ابن إياس إلى فتنة أو اضطراب أحدثه المماليك الجلبان في الدولة، بحيث بدت شيئاً عادياً جعل ابن إياس يشير إليها أحياناً وكأنها أمراً روتينياً في حياة المجتمع، دون أن يحدد وقائع محدودة بخصوصها. ومثال ذلك ما يقوله ابن إياس في حوادث سنة ٨٨٧ هـ من أنه «في هذه الأيام

---

(١) المقريزي: الخطط ٣/ ٣٤٧ - ٣٤٨ الباز العريني: المماليك ٨٤ - ١٢٧.

تزايد شر المماليك الجلبان وصاروا يأخذون شيئاً من الناس بلاش من دكاكين التجار وغيرهم، وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل»[1] .

أما سلاطين المماليك فقد وقفوا وقفة العاجز أمام ذلك الخطر بعد أن «تزايد شر المماليك الجلبان وضيّقوا على السلطان وصار معهم في غاية الضنك» على قول ابن إياس في حوادث سنة ٩٠٢ هـ[2] . ولم تكن ممتلكات السلطان نفسها في مأمن من عدوان المماليك الجلبان، فقد حدث مثلاً سنة ٩١٧ هـ، على حد رواية ابن إياس ، أن «توجهت طائفة من المماليك الجلبان إلى شونة السلطان ونهبوا أشياء كثيرة من الشعير، فعزّ ذلك على السلطان. وكانت المماليك مقتحمة على الشر». وبلغ الأمر والضيق بالسلطان الغوري أنه جمع المماليك الجلبان في الحوش بالقلعة وقال لهم «أنا أخلع نفسي من السلطنة وولوا من تختارونه»[3] .

ولم يكن الغوري أول من ضاق ذرعاً بالأجلاب وهدد باعتزال منصب السلطنة، إذ يروي ابن إياس أن السلطان قايتباي عندما اشتد به الضيق من الاضطرابات التي أثارها

---

(١) بدائع الزهور ٣/ ١٩٧.

(٢) بدائع الزهور ٣/ ٣٥١.

(٣) بدائع الزهور ٢٤١/٤.

الجلبان في سنة ٨٩٥ هـ قال لهم: «أنا أترك لكم عن السلطنة وأمضي إلى مكة»[١] .

ولم يقف المماليك الجلبان عند حد معين في طلب المال، كما لم يقدروا الظروف الاقتصادية التي مرّت بها الدولة، فانتهزوا فرصة الأخطار التي أحاطت بالدولة في ذلك الدور، وشدّدوا في زيادة النفقة، الأمر الذي جعل السلطان قايتباي يجمع القضاة الأربعة وسائر أمراء الدولة سنة ٨٩٤ هـ ويقول لهم، حسب رواية ابن إياس ما نصه[٢].

«هذه المماليك يرومون مني نفقة وقد نفد جميع ما في الخزائن على التجاريد ولم يبق فيها شيء من المال. . . وقال للقضاة: اشهدوا عليّ أني خلعت نفسي من السلطنة. وشرع يفك أزراره. . فتعلق به القضاة ومنعوه. . ».

هذا النص الذي أورده ابن إياس لا يشير إلى مدى استهانة المماليك الجلبان بقواعد النظام وآداب السلوك، وإنما يلقي ضوءاً على ما كابدته خزانة الدولة من أعباء ثقيلة كان على السلاطين أن يدبروها من أجل إشباع نهم المماليك المتزايد للمال.

ولم يلتزم سلاطين المماليك بدورهم نوعاً من الاقتصاد

---

(١) بدائع الزهور ٣/ ٢٦٩.

(٢) بدائع الزهور ٣/ ٢٦١.

في نفقاتهم الخاصة ليخففوا عن رعاياهم الأعباء الثقيلة الملقاة على عواتقهم، وإنما استمر المماليك، سلطاناً وأمراء وجند، يعيشون عيشة البذخ والإسراف. مع أن السلطان قايتباي قد أعلن، كما رأينا سنة ٨٩٤ هـ أمام القضاة والأمراء أن جميع ما في خزائن الدولة من أموال قد نفد، فإننا نراه في العام التالي سنة ٨٩٥. يقيم حفلاً لمناسبة ختان ابنه محمد، الذي تسلطن بعده، وكان في السابعة من عمره، كان كما يقول ابن إياس من «الأيام المشهودة لم يسمع بمثلها»(١) .

وفي تلك الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي كانت تمر بها سلطنة المماليك في أخريات أيامها، لم يكف السلاطين عن دفع الأموال الباهظة لشراء أعداد كبيرة من المماليك. من ذلك ما يقوله ابن إياس في حوادث سنة ٩٠١ هـ من أن قايتباي كان مغرماً بمشترى المماليك حتى قيل «لولا الطواعين التي وقعت في أيامه لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك»(٢) . أما السلطان الغوري فيقول عنه ابن إياس في حوادث سنة ٩٢٢ هـ أن خاصكيته تكاملت في تلك السنة «نحو ألف ومائتي خاصكي من مشترواته»(٣) . هذا كله فضلاً عن

(١) بدائع الزهور ٣/ ٢٧١.
(٢) بدائع الزهور ٣/ ٣٢٥.
(٣) بدائع الزهور ٥/ ٦.

المنشآت الضخمة التي ظل السلاطين يقيمونها حتى أواخر دولتهم[1] .

وزاد في سوء الأحوال الاقتصادية في هذه الفترة أن الطبيعة لم ترحم البلاد. ويروي ابن إياس كيف انتشر الطاعون في مصر عدة مرات سنوات ٨٧٣، ٨٨٨، ٩٠٣، ٩٠٩، ٩١٢، ٩١٥ هـ. ومن هذا يبدو أن الناس ما كادوا يفيقون من موجة من موجات الطاعون حتى يتعرضون لموجة كاسحة جديدة، ويحكي ابن إياس عن الطاعون الذي انتشر سنة ٨٩٧ هـ بأنه كان الطاعون الثالث الذي وقع دولة الأشرف قايتباي، وأنه «فتك في الناس فتكاً ذريعاً» حتى لقد بلغ عدد من مات به وأبلغ اسمه فعلاً لديوان المواريث نحواً من مائتي ألف إنسان[2] . ويعلل ابن إياس في حوادث سنة ٨٩٧ هـ هذه الطواعين بالفساد الذي عمّ البلاد، وأنها جاءت نقمة من الله بعد أن «كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا

---

(١) ذكر ابن إياس على سبيل المثال لا الحصر المنشآت التي أقامها الأشرف قايتباي أيام دولته من أنه أقام أربع منشآت في الحجاز، ومدرستين بالشام، ومدرسة بالإسكندرية، والبرج الذي أقامه مكان المنار القديم بالإسكندرية، ومدرسة بغزة، وجوامع عدة بمصر والإسكندرية، فضلاً عن المدارس والسبيل والزوايا والقناطر والربوع - بدائع الزهور ٣/ ٣٢٩ - ٣٣٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٢٨٩.

وجور المماليك في حق الناس..»[1] .

يضاف إلى ذلك ما كان مألوفاً بين حين وآخر في تلك العصور من انخفاض النيل وتعرض الحاصلات لبعض الآفات، مما كان يعود على الحياة الاقتصادية بأفدح العواقب.

وفي الوقت الذي تعرض فيه الفلاح لهذه الأزمات الاقتصادية التي جاءت نتيجة لفعل الطبيعة، ما بين وباء ونقص في ماء النيل، وآفات تلتهم المحاصيل.. إذا به لا يسلم من خطر العربات، الذي دأبوا على إفساد البلاد والاعتداء على الفلاحين ونهب مواشيهم ومحاصيلهم. مما جعل الريف يتعرض لأزمات تخريبية زادت الأحوال الاقتصادية في البلاد سوءاً فوق سوء. وقد أفاض ابن إياس في وصف عبث العربان بالبلاد وتعديهم على العباد وذلك خلال ذكره لحوادث سنة ٨٧٣، ٨٧٦ هـ، ٨٩١ هـ، ٩٠٤ هـ، ٩١٨، ٩٢٠ هـ. ولم تقف سلطنة المماليك مكتوفة الأيدي، وانما خرجت الجيوش إلى الصعيد والبحيرة والشرقية والجيزة للضرب على أيديهم، ولكن في كل مرة تعود فيها الجيوش كان يتجدد من العربان «ما لا خير فيه من نهب البلاد وسلب المسافرين، ووقع منهم غاية الفساد.

هذا عن الأسباب الداخلية للانهيار الاقتصادي في أواخر

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٢٨٧.

عصر المماليك، كما نستشفها من كتابات ابن إياس وثمة أسباب أخرى ترتبط بعوامل خارجية نستطيع أن نضع عليها أيدينا من ثنايا ما كتبه ذلك المؤرخ الكبير، من هذه العوامل والأسباب ما يرتبط بطمع الأعداء في دولة المماليك وتجرؤهم على غزوها بعد أن اتضح لهم أنها غدت في ذلك الدور الأخير أضعف من أن تستطيع الدفاع عن كيانها. ويشير ابن إياس في حوادث ٨٧٢ هـ إلى ما كان بين سلطنة المماليك وشاه سوار، وهو من أمراء التركمان على الحدود الشمالية للدولة من حروب[1] ، كما يشير في حوادث سنة ٨٨٨ هـ إلى أن علي بن دولات بن دلغادر هاجم ملطية في جمع كبير من العساكر «فانزعج السلطان لهذا الخبر»[2] . أما هجمات العثمانيين على أطراف الدولة المملوكية فيشير إليها ابن إياس في حوادث سنة ٨٩٠ هـ، ٨٩١ هـ، ٨٩٣ هـ وغيرها.

وتعرضت سلطنة المماليك لهجمات من ناحية البحر المتوسط، إذ دأب الفرنج وقراصنتهم على مهاجمة شواطىء الدولة وموانيها وقطع الطريق على سفنها التجارية في عرض البحر. من ذلك ما يشير إليه ابن إياس في حوادث سنة ٨٧٨ هـ إذ «جاءت الأخبار من الإسكندرية بأن الفرنج قد تعبثوا ببعض سواحلها وأسروا من المسلمين تسعة أنفار،

(١) بدائع الزهور ٣/ ٧.

(٢) بدائع الزهور ٣/ ٢٠٢.

وفعلوا مثل ذلك بثغر دمياط»[1] . وذكر ابن إياس حوادث مشابهة تشير إلى عدوان الفرنج في البحر المتوسط على موانىء دولة المماليك وسفنها وذلك في حوادث سنة ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥ هـ.

ومن الواضح أن خطورة مثل هذه الهجمات المعادية على أطراف الدولة وسواحلها لا تقف من الناحية الاقتصادية عند حد ما كانت تحدثه من خراب وتدمير، وإنما كانت تتطلب للحد من خطرها ومقاومتها نفقات باهظة تلقي على خزانة الدولة مزيداً من الأعباء، في وقت اشتد فيه طمع الجند وازدادت شراهتهم للمال وصاروا لا يتحركون ولا يخرجون في تجريدة إلّا بعد أن يتقاضوا الثمن أضعافاً مضاعفة. من ذلك ما يشير إليه ابن إياس من أن السلطان قايتباي عندما أخرج تجريدة ضد شاه سوار سنة ٨٧٢ هـ «نفق على كل مملوك جامكية أربعة شهور معجلاً، وصرف لهم الكسوة، وأعطى لكل واحد جملاً وأرضى العسكر بكل ما يمكن»[2] . أما النفقة على الأمراء والجند الذين خرجوا سنة ٨٨٨ هـ في حملة ضد علي بن دولات دلغادر، فيحكي ابن إياس أنها بلغت «زيادة على السبعين ألف دينار»[3] . وفي سنة ٨٩٣ هـ

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٢١٩، ٢٦٦، ٢٥٠.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٨٩.

(٣) بدائع الزهور ٣/ ٩.

خرجت حملة ضد العثمانيين الذين استولوا على قلعة إياس، فكانت «جملة النفقة على الأمراء والجند نحواً من ألف دينار»[1] .

ومهما يكن من أمر تلك الحروب الدفاعية التي قامت السلطنة المملوكية، فإنها كانت حروباً استنزافية جاءت لتلقي أعباء ثقيلة على خزانة الدولة، وبالتالي فإنها زادت الأوضاع الاقتصادية سوءاً فوق سوء.

على أن العامل الأساسي في تدهور الحياة الاقتصادية في أواخر عصر سلطنة المماليك، إنما يكمن في كساد تجارتها. ذلك أنه من المعروف أن دولة المماليك بنت قوتها واستمدت ثروتها من قيامها بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، في عصر انسدت معظم طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب بسبب ظهور التتار على مسرح الشرق الأوسط، بحيث لم يبق خارج سيطرتهم إلاّ طريق البحر الأحمر عبر أراضي دولة المماليك إلى البحر المتوسط. ولكن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ووصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق الالتفاف حول إفريقية حرم المماليك من المورد الأول لثروتهم وقوتهم، مما أنزل ضربة قاصمة بدولتهم. ويصور ابن إياس ما أصاب الدولة من خراب نتيجة لكساد تجارتها في عبارة ذكرها في حوادث سنة ٩٢٠ هـ إذ يقول ما نصه:

---

(١) بدائع الزهور ٣/ ٢٠٣.

«وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشحات والتعطيل فإن بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل إليه القطائع في السنة الحالية.. وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحواً من ست سنين، وكذلك جهة دمياط».

ويبدو مما كتبه ابن إياس أن سلطنة المماليك ما كادت تحس بذلك الخطر المفاجىء حتى استماتت في دفعه، فيذكر في حوادث سنة ٩١١ هـ، ٩١٣ هـ، كيف اهتم الغوري ببناء السفن في البحر الأحمر «بسبب تعبث الفرنج بسواحل الهند». كذلك يذكر ابن إياس في حوادث سنة ٩١٩ هـ، أنه «حضر هجّان من مكة في مسافة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج قد ملكوا كمران، وأنهم يحاصرون مدينة سواكن، وأن الشريف بركات أمير مكة خرج إلى جدة.. خوفاً على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه...». ثم يستمر ابن إياس فيروي مدى اهتمام السلطان الغوري لهذه الأخبار، حتى أنه ذهب بنفسه إلى السويس سنة ٩٢٠ هـ «ليكشف عن المراكب التي أنشأها هناك...» على أن الغوري لم يستطع أن يتغلب على البرتغاليين. وبضياع تجارة الشرق، فقدت سلطنة المماليك كل شيء.

وبعد هذا العرض الذي قدمه لنا ابن إياس لمظاهر

التدهور الاقتصادي وعوامله في السنوات الأخيرة من عمر الدولة المملوكية، يصح لنا أن نتساءل عن الجهود التي حاول بها سلاطين المماليك علاج ذلك التدهور. هنا يبدو بوضوح من كتابات ابن إياس أن سلاطين المماليك لم يقوموا في حقيقة الأمر بمحاولات جدية لإصلاح أسباب الداء، وعلاج مظاهر التدهور الاقتصادي علاجاً جذرياً. وكل ما قاموا به هو اتباع أساليب غير مشروعة لتعويض خزانة دولتهم عما فقدته. وتمكينهم من النهوض بالأعباء الملقاة على عاتق الدولة، فضلاً عن إشباع المطالب الخاصة بالسلاطين أنفسهم. ولئن نجحت هذه الأساليب في توفير بعض الأموال المطلوبة للسلاطين، إلاّ أنها من الناحية الاقتصادية زادت الأمور تعقيداً، وأسرعت بالخراب الذي حلّ بالدولة وبمرافقها مما عجّل في نهايتها المحتومة من ذلك ما لجأ إليه سلاطين المماليك في تلك الحقبة من تطبيق سياسة الاحتكار والتوسع في نشاط المتجر السلطاني. والمعروف أن سياسة الاحتكار التي توسع فيها السلاطين منذ أيام برسباي (١٤٢٢ م ـ ١٤٣٨ م) قامت على أساس احتكار السلاطين أصنافاً معينة من البضائع لا يجوز لأي فرد آخر أن يتاجر فيها، مما ضمن للسلاطين إيراداً ضخماً وخاصة من وراء بعض حاملات الشرق التي احتكر السلاطين بيعها للتجار الأوروبيين. وعلى هذا فإن السلطان كان يستغل أمواله بتشغيلها في التجارة طلباً للكسب، وبذلك ينافس أرباب الأعمال والتجار في أرزاقهم. ويروي ابن إياس

في حوادث ٩١٩ هـ عن السلطان الغوري أنه كان «يشتري القمح ويرسله إلى الشام فإنه كان بها غلاء عظيم حتى قيل فيها كل أردب قمح إلى سبعة أشرفية، فكان يشتري القمح من مصر ويرسله إلى البلاد الشامية، فانشحطت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك، وكادت أن تكون غلوة مع وجود القمح الجديد..».

وهكذا استغل السلطان الفارق في سعر القمح بين مصر والشام ليشتري كميات كبيرة من القمح لحسابه الخاص ويرسلها إلى الشام ليحصل على فرق الثمن، غير مبال بما يعانيه شعبه في مصر والشام جميعاً من جراء هذا الاستغلال.

ولم يكتف سلاطين المماليك بذلك، وإنما تحايلوا من أجل الحصول على المال بمصادرة أموال الناس وأملاكهم، فكان يكفي أن تظهر على أحد رجال الدولة دلائل النعمة حتى يكون هدفاً سهلاً للسلطان يقرر عليه المبالغ الضخمة ليدفعها، وإلاّ لاقى أسوأ مصير. ويذكر ابن إياس في حوادث سنة ٨٧٢ هـ أن أحمد بن العيني عندما قرّر في إمرة مجلس ظهرت عليه النعمة المفرطة حتى أطلق عليه «عزيز مصر» فما كان من السلطان قايتباي إلاّ أن قرّر عليه مبلغاً ضخماً من المال يدفعه، فلما تباطأ في الدفع استدعاه السلطان «وبطحه على الأرض، وتولى ضربه بيده، فضربه نحواً من عشرين عصا حتى شق كعبه وأدمي»[1] . وقد تعهد ابن العيني بأن

(١) بدائع الزهور ٣/ ٢٥١.

يقسط المبلغ المطلوب منه. كذلك يذكر ابن إياس أن السلطان قايتباي صادر سنة ٨٩٦ هـ مهتارة رمضان عندما رأى عليه معالم العز والعظمة وما زال «يضيّق عليه حتى أخذ منه ستين ألف دينار»[1] .

ولم يكن قايتباي وحده من اتبع سياسة المصادرات، وإنما دأب على اتباع هذه السياسة بقية سلاطين المماليك حتى نهاية دولتهم فابن إياس يقول عن السلطان الظاهر قانصوه في حوادث سنة ٩٠٥ هـ إن «من مساوئه أنه ظلم جماعة من أعيان الناس من رجال ونساء، وأخذ أملاكهم غصباً»[2] . ومن الواضح أن أعمال المصادرات كانت تشتد عسفاً كلما امتد الوقت بدولة المماليك وازداد عسرها المالي. ويروي ابن إياس في حوادث سنة ٩٠٧ هـ أن المماليك عندما طلبوا النفقة من السلطان الغوري «ظل يصبرهم نحواً من أربعة أشهر حتى جمعت الأموال من المصادرات» ثم يقول ابن إياس في حوادث سنة ٩١٥ هـ انه «صودر في هذه السنة جماعة كثيرة من أعيان الناس». ولم تقتصر هذه المصادرات على الأموال السائلة والعقارات، وان امتدت إلى غيرها، حسب حاجة السلطان. من ذلك ما يقوله ابن إياس في حوادث سنة ٩١٩ هـ من انه عندما اشتدت حاجة السلطان إلى الأخشاب

---

(١) بدائع الزهور ٣/ ٩.

(٢) بدائع الزهور ٣/ ٢٨٠.

لبناء السفن في السويس لمنازلة البرتغاليين، فإن رجاله «صاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصباً باليد. ويرسلونه إلى السويس لأجل عمارة المراكب هناك».

وثمة نوع آخر من المصادرات لجأ إليه سلاطين المماليك لتدبير المال اللازم لهم، هو قطع أرزاق الناس، وخاصة الفقهاء والمتعممين، وحرمانهم من مرتباتهم العينية أو انقاصها، حتى انتهى الأمر بأن امتدت أيدي السلاطين إلى الأوقاف الشرعية لحرمان مستحقيها من نصيبهم منها، وسلب أموالها وريعها[1] .

وثمة وسيلة أخرى لجأ إليها سلاطين المماليك الأواخر للحصول على المال، هي التلاعب بالعملة[2] وفرض الضرائب والمكوس وفرض بضائع معينة على التجار يشترونها من السلطان بالأسعار التي يحددها هو، مما أدى إلى زعزعة الحالة الاقتصادية في الأسواق[3] .

---

(١) بدائع الزهور ٣/٤٣٧.

(٢) كان ابن إياس من جملة من صودرت إقطاعاتهم سنة ٩١٤ هـ. لكنه ما زال يقف للسلطان الغوري يشكو له حاله، حتى رقّ له وأمر بإعادة إقطاعه إليه في العام التالي (٩١٥ هـ).

(٣) ضرب السلطان قايتباي سنة ٨٧٩ فلوساً جدداً وأراد أن يجعل سعرها أغلى من الفلوس العتق ليجني الفرق بين السعرين. ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

وفي الوقت الذي كان رجال السلطان يضيقون على التجار في المدن، كانّ الكشّاف في الأقاليم ينفذون تعاليم السلطان بجمع الأموال من المقطعين. ويروي ابن إياس أنه حدث سنة ٨٩٣ هـ أن جدد السلطان قايتباي «مظلمة شنيعة، وهي أنه أرسل إلى كاشف الشرقية بأن يأخذ من البلاد الخمس من خراج المقطعين.. فحصل للمقطعين غاية الضرر من كبس البلاد والقبض على الفلاحين.. وقد جبي الخمس من خراج المقطعين سنتين متواليتين»[1] . وقد تكرر جمع الخمس من ضواحي الشرقية مرة أخرى في سنة ٨٩٥ هـ عندما تجددت الحاجة إلى المال لمواجهة خطر العثمانيين.

وربما لجأ السلطان إلى جمع خراج الأرض من المزارعين والفلاحين قبل استحقاقه وقبل جمع المحصول الجديد، بل حتى قبل موسم فيضان النيل، مما عرّضهم لكثير من المظالم. من ذلك ما جاء في حوادث سنة ٩١٨ من أن السلطان الغوري رسم «لكاشف الشرقية وكاشف الغربية بأن ينزلوا على البلاد ويستخرجوا من الفلاحين الحمايات والشياخة وقدوم الكشاف عن سنة ثماني عشرة وتسعمائة الخراجية قبل أن تدخل، وقبل أن تنزل النقطة وينادي على النيل، فحصل للمقطعين غاية الضرر، وصارت الكشاف تنزل على البلاد وتكبس على الفلاحين ويستخرجون منهم الأموال بالضرب، والذي يهرب

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٢٥٣.

يقبضون على نسائهم وعلى أولادهم، فخرب غالب البلاد، ورحل عنها الفلاحون» ولعل الفقرة الأخيرة من عبارة ابن إياس توضح لنا مدى الخراب الاقتصادي الذي حل بريف مصر نتيجة للسياسة الغاشمة التي اتبعها المماليك من أجل الأموال. ومن المكوس التي استحدثها المماليك في هذه الفترة مكس الغلة، وضريبة المشاهرة والمجامعة وهي ضريبة تجمع من السوقة وتدفع للمحتسب كل شهر ليوردها للخزائن السلطانية، مما اضطر الباعة إلى تعويض قيمتها عن طريق رفع أثمان البضائع، فاشتد الغلاء وعزّ وجود أصناف كثيرة من البضائع حتى اضطر السلطان إلى إلغائها سنة ٩٢٢ هـ[1] .

وفي الوقت الذي كان التجار داخل البلاد يتعرضون لهذه المظالم التي يقع جزء منها بدوره على المستهلك تعرض التجار الأجانب الوافدون على موانىء الدولة في مصر والحجاز وغيرها لنفس السياسة التعسفية، الأمر الذي جعلهم ينصرفون عن المتاجرة مع الدولة، في الوقت الذي ظهرت معالم الطريق الجديد حول إفريقيا إلى الهند. وهكذا ذبلت الإسكندرية ودمياط وجدّة وغيرها من ثغور الدولة وأقفرت أسواقها بعد أن انصرف عنها التجار تجنباً لدفع المكوس الباهظة. ويقول ابن إياس عن مدينة الإسكندرية في حوادث سنة ٩٢٠ هـ عندما زارها السلطان الغوري إنها «كانت في غاية الخراب بسبب

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ١٧ ـ ١٨.

ظلم النائب وجور القبّاض، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر فتلاشى أمر المدينة».

وهكذا يتضح لنا من ثنايا ما كتبه ابن إياس في كتابه بدائع الزهور كيف تدهورت الأحوال الاقتصادية في الدولة المملوكية البرجية لأسباب عديدة تضافرت لتهز قواعد تلك الدولة هزاً عنيفاً حتى فقدت أسباب رخائها وثروتها. وبضياع المال والاقتصاد خسر المماليك كل شيء حتى دولتهم خسروها سنة ٩٢٣ هـ.

ب ـ الفتح العثماني لمصر: كانت مصر من بين فتوح الدولة العثمانية، أعظمها وأيسرها، ففي مرج دابق غنم العثمانيون تراث الدولة الإسلامية، الذي تكدس في الشام ومصر على مدى تسعة قرون وسحقوا دولة المماليك الزاهرة، وهي ما تزال تحتفظ بالكثير من سالف بأسها وبهائها، وانتزعوا رسوم الخلافة العباسية بعدما اتّشحت بها مصر عصوراً طويلة. وكان مصير مصر يضطرب في كفة القدر قبل ذلك بأكثر من قرن، ومن المحقق أنها كانت قبلة لأطماع العثمانيين منذ أن اشتد ساعدهم ونما سلطانهم، وأشرفوا من هضابهم على حدود مصر الشمالية، فكانت مصر تثير جشعهم بخصبها وغناها. وما كان الفتح العثماني ليتأخر إلى عام مرج دابق لولا أن عاصفة هائلة هبّت على العالم الإسلامي قبل ذلك بأكثر من قرن، فكادت تكتسح جميع الدول الإسلامية، ولولا أنها

انقضت بالأخص على دولة بني عثمان فكادت تسحقها في المهد، ففي موقعة أنقرة أصاب تيمورلنك دولة بني عثمان الناهضة بضربة شديدة سنة ١٤٠٢ م، مما جعلهم ينشغلون مدى نصف قرن بإصلاح شؤونهم وإتمام أهبتهم لفتح القسطنطينية. ومنذ محمد الفاتح عاد سيل الفتح العثماني يتدفق نحو الشمال ونحو الجنوب، وعادت مصر قبلة للفاتحين.

ولم تنج مصر من بطش تيمورلنك لولا ارتداده بعد فتحه الشام ونكبته لها، من تلقاء نفسه، لقتال بني عثمان. وهكذا بينما كانت مصر تختم عصورها المجيدة، وتنحدر ببطء إلى طور جديد من الانحلال، وتجنح إلى حياة فتور ودعة، إذا بالدولة العثمانية الفتية الناهضة، تفيق من نكبتها بسرعة، وتفتتح القسطنطينية، ثم توغل في الفتح شمالاً وشرقاً. وكان شبح هذا الخطر يلوح لمصر قبل وقوعه بأعوام طويلة. ومنذ أوائل القرن العاشر الهجري (أوائل السادس عشر الميلادي) كانت الجيوش العثمانية تهدد الشام من الشمال والشرق، وكانت مصر واثقة من منعتها، فكانت كلما لاح هذا الخطر تهم لدفعه في أهبات جزئية محلية. غير أن ثقة مصر في منعتها واستسلامها إلى نوع من القدرية، كانت أعظم أسباب نكبتها. فقد لبثت مصر آمنة هادئة، حتى اتخذ الفاتح كل أهبته، وسار سلطان مصر للقائه في أقصى حدوده الشمالية تاركاً من ورائه حكومة مفككة العرى، وقواعد غير محصّنة،

وعمالاً ذوي أطماع وكيْد. فكانت المفاجأة الهائلة في مرج دابق، وكان زوال ملك مصر وسيادتها وانحدارها إلى هاوية الانحلال الفكري والاقتصادي والاجتماعي.

كانت حوادث الفتح العثماني آخر ما دوّن قلم ابن إياس، فهو يصل في روايته حتى خاتمة سنة ٩٢٨/ ١٥٢٢. ونحن نعرف أن المؤرخ توفيّ بعدئذ بقليل (سنة ٩٣٠ هـ). ورواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثماني لمصر هي أهم وأنفس ما في كتابه، وإن كان بيانه لم يسبغ عليها كل ما يجب من دقة وقوة، فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة الحاسمة في تاريخ مصر وتاريخ الإسلام سجلاً يومياً مسهباً، يستند إلى تحقيق المعاصرة والمشاهدة. وهو لا يمهد فيه إلى الحوادث، ولا يعنى بربطها، بل يدونها مرسلة كما وقعت، ويحصي آثارها إحصاء من رأى وسمع، وما كان لابن إياس أن يمهد أو يكثر من التعليق في رواية انقلاب مفاجىء صعقت مصر لحوادثه السريعة المدهشة، وقضت من بعده حيناً بين التصديق والتكذيب، والرجاء واليأس وكل ما هنالك أن ابن إياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه، بالاستناد إلى الحوادث دائماً، فنراه يحمل على السفاكين والظلمة بعبارات شديدة، وأحياناً مؤثرة، ويغتبط بمصرعهم، ويعنى بالتبسط في سرد فظائع الترك وآثام الفاتح، ويشيد ببطولة طومان باي آخر الزعماء المدافعين عن مصر، ويبكي مصرعه ومصرع أعوانه

وجنده[١] ويرسل عبارات التأثر أو التسخط أو الغضب أو الاشفاق كلما عنّ له ذلك. على أن قصور بيانه كثيراً ما يعجزه عن أن يسبغ على هذه البوادر النفسية كل ما يجب من القوة والوضوح. وهذا القصور في البيان ينتقص كثيراً من قيمة الرواية التي يخلّفها لنا ابن إياس عن حوادث الفتح العثماني.

كانت مصر تستشعر النكبة قبل وقوعها وترتجف لشبح الفتح المرتقب. ويبدو جلياً من خلال رواية ابن إياس أن بلاط القاهرة كان يشعر بأن خطر الفتح العثماني غدا قريب الانقضاض، وبصالح بلاط القسطنطينية ما استطاع سبيلاً إلى ذلك[٢]. وكان الملك العثماني سليم الأول يخادع من جانبه سلطان مصر ويهاديه ويراسله[٣]. على أن بلاط القاهرة لم يخدع ولم يطمئن. بل كان الغوري دائب الأهبة والاستعداد.

---

(١) يرثي ابن إياس طومان باي قائلاً:

لهفي على سلطان مصر كيف قد ... ولّى وزال كأنه لن يذكرا

شنقوه ظلماً فوق باب زويلة ... ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا

يا ربّ فاعف عن عظائم جرمه ... واجعل بجنات النعيم له قرا

(٢) بدائع الزهور ٤/ ٢٨٩.

(٣) بدائع الزهور ٤/ ٢٠٠، ٣٨٤.

ولكن الانحلال كان يسود شؤون مصر يومئذ، وكانت الثورات الداخلية تفت في نظمها وأهبتها. وكان الفساد يقضم أسس نظمها العامة سواء في الإدارة أو القضاء[1] . ويتحدث ابن إياس عن مقدمات الفتح، ويذكر كيف أن أميراً مصرياً، نقم على السلطان، وفرّ إلى القسطنطينية، ونقل إلى سليم الأول أخبار مصر وأحوالها، وأطلعه على قواتها وأسرار دفاعها وحدّثه عما يسودها من الاضطراب والضعف. ثم يقول: «فعندئذ طمعت آمال ابن عثمان بأن يملك مصر والله تعالى غالب أمره» مما يدل على أن المجتمع المصري كان يشعر بدنو النكبة وانقضاضها[2] . ولكن مصر لم تكن تتوقع أن يسحق استقلالها ومجدها في لمحة صاعقة، فكانت موقعة مرج دابق مفاجأة مروعة، ذهلت لها مصر وصعقت. ويبدو هذا الروع واضحاً في أول صرخة تبدر عن المؤرخ في ذكر النكبة إذ يقول: وفي يوم السبت سادس عشر شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار»[3] . ولا غرو فقد خرج السلطان الغوري، إلى شمال الشام بجيشه، ليرد عادية الغزاة عن مصر، فكانت مرج دابق قبراً له يقول ابن إياس: «وزال ملك الأشرف الغوري في لمح البصر،

---

(١) بدائع الزهور ٤/ ٢٤٩، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٤/ ٤٧١، ٤٧٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ٦٧.

فكأنه لم يكن، فسبحان من لا يزول ملكه»[1] . ويفيض في تفاصيل الواقعة الهائلة التي نشبت بين الغزاة وبين الجيش المصري في مرج دابق في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٩٢٢ هـ/آب ١٥١٦ م، وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب، ويصف صدى النكبة في القاهرة وكيف «قام نعي السلطان في ذلك اليوم ونعي الأمراء والأعيان الذين قتلوا. وصار في كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء. . . ورجّت القاهرة وضجّت الناس، واضطربت الأحوال، وكثر القيل والقال»[2] .

ثم يقف المؤرخ قليلاً ليصف الغوري وخلاله. ويعدّد مثالبه ومآثره وينظم في ذلك[3] .

طالعت تاريخ الملوك فلم أر
فيما سمعت حوادثاً مما جرى
لا زالت الأيام يبدو فعلها
بعجائب وغرائب بين الورى
لكن هذي وقعة ما مثلها
سبقت لسلطان ولا متأمرا

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ٧١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ٧٩.

(٣) بدائع الزهور ٥/ ٨٨ - ٨٩.

والأشرف الغوري كان مليكنا
لكنه قد جار فينا وافترى
أعماله رُدّت عليه بما جنى
والدهر جازاه بأمر قدرا

ويختم ابن إياس حديثه عن الغوري وعن عصره وأعماله بإيراد زجل طويل مؤثر لصديقه بدر الدين الزيتوني، وهو من أشهر أدباء العصر، وفيه يصف النكبة في مقاطع مبكية[1] .

ويتتبع ابن إياس حركات الغزاة بإفاضة منذ مرج دابق حتى قدومهم إلى القاهرة في أواخر ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ/ كانون الأول ١٥١٦. ويصف أهبة السلطان طومان باي لمقاومة الفاتح بحماسة، وينوّه بهمته العالية في إعداد وسائل الدفاع، ويجيد شرح الوقائع الهائلة التي نشبت متعاقبة بين المماليك والأتراك، وكيف عبس القدر لطومان باي فهزم مراراً في أنحاء القاهرة وضواحيها، ولكنه استمر في دفاعه حتى انفضّ عنه معظم أنصاره وجنده، ففرّ إلى الصعيد يجمع هنالك أشتات جيشه، كما يصور لنا انقضاض الغزاة على القاهرة كالضواري المفترسة، حيث أوقعوا في سكانها السفك الذريع، وأمعنوا في الأمنين قتلاً وعبثاً وهتكاً ونهباً. ودامت هذه المذبحة الهائلة أياماً أربعة من ثامن المحرم سنة ٩٢٣/ أوائل شباط ١٥١٧ م ويصفها ابن إياس «بالمصيبة العظمى التي لم يسمع بمثلها

(١) نص المرثية في بدائع الزهور ٥/ ٩٦ - ١٠١.

فيهما تقدم من الزمن» ويقول «إن الجثث كانت مرمية في الطرقات من باب زويلة إلى الرميلة، ومن الرميلة إلى الصليبة، إلى قناطر السباع، إلى الناصرية، إلى مصر العتيقة» ويقدر القتلى بأكثر من عشرة آلاف، ويقدر من قتل من المماليك فقط بثمانمائة[1] . ولم تمضِ أسابيع قلائل على ذلك حتى أمر سليم الأول بإعدام الأمراء المماليك، وكان قد احتال عليهم ووعدهم بالأمان حتى ظهروا، وعددهم أربعة وخمسون أميراً وقائداً، وقبض على نسائهم وفرض عليهن الغرامات الفادحة[2] .

ثم كانت الموقعة الفاصلة والأخيرة بين العثمانيين والمماليك في السادس من ربيع الأول ٩٢٣ هـ / نيسان ١٥١٧ م إذ عاد طومان باي بقواته على مقربة من الجيزة، لكنه هزم للمرة الخامسة، وظفر الفاتح بطومان باي وأمر بإعدامه، فشنق على باب زويلة[3] . وقد رثاه ابن إياس بقوله[4] «صرخت الناس عليه صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والأسف. وكان شجاعاً بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه، وفتك في عسكر ابن عثمان وقتل

(١) ابن إياس. بدائع الزهور ٥/ ١٥٦.

(٢) بدائع الزهور ٥/ ١٦٩ - ١٧١.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ١٧٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ١٧٨ - ١٨٨.

منهم ما لا يحصى، ووقع منه في الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة.. وقاسى شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاجاً.. ولم يسمع بمثل هذه الوقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ولم يعهد مثل هذا».

ولبث سليم الأول في القاهرة زهاء ثمانية أشهر يذيق وجنده المصريين أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة، ويجمع من تراث مصر وثروتها الفنية، كل ما وصلت إليه يده، ويخرب المساجد والآثار الخالدة لينتزع منها نفائسها الفنية ويبعث بها إلى القسطنطينية، ويقبض على أكابر مصر وزعمائها وعلمائها، ورجال المهن والفنون فيها ومَهَرَة الصنّاع والعمال، حيث يحشدهم أكداساً في السفن ويبعث بهم إلى القسطنطينية، وكان في مقدمة هؤلاء المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس بمصر وأفراد أسرته؛ وجماعة كبيرة من الأمراء والقواد والقضاة. وكان الفاتح العثماني يرمي بذلك إلى عرضين: الأول تجريد مصر من أكابرها وزعمائها ليحطم بذلك عصبيتها، ويقتل قواها المعنوية، والثاني نقل تراث مصر الفني والفكري والصناعي إلى عاصمته. ويقول ابن إياس في ذلك: «وكانت هذه الواقعة من أبشع الوقائع المنكرة التي لم يقع لأهل مصر قط مثلها» ويعقد فصلاً خاصاً يذكر فيه أسماء كل من نفي إلى القسطنطينية من أكابر مصر وأعيانها ومفكّريها وفنانيها[1].

---

(١) انظر القصيدة كاملة في بدائع الزهور ١٩٨/٥ - ٢٠٢.

ويختم ابن إياس هذه الوقائع كلها بقصيدة طويلة من نظمه هذا مطلعها[1] :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى
من حادث عمت مصيبته الورى
زالت عساكرها من الأتراك في
غمض العيون كأنها سنة الكرى

ويفيض المؤرخ في أعمال الفاتح وجوره، وما أصاب شعب مصر من بطشه وعسفه حتى مغادرته مصر، ثم يتتبع أخباره بعد ذلك حتى وفاته عام ستة وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠ م) ويترجمه بهذه المناسبة ويرثيه بأبيات من نظمه[2] .

هذه هي رواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثماني، وهي وثيقة تستمد نفاستها، رغم ضعف بيانها من المعاصرة والمشاهدة. بيد أنه يجب ألا نبالغ في مدى هذه المشاهدة، فابن إياس لم يكن جندياً، ولم يكن من رجال الدولة أو القادة. والظاهر أيضاً أنه كان قليل التطواف والتنقل في تلك الأيام العصيبة التي دوّن حوادثها، فهو مثلاً لم يحاول أن يرى سليماً الأول رغم اقامته في القاهرة عدة أشهر، وهو لذلك يعتمد في وصف شخصه على صديق له رآه. وربما لم يتمكن من ذلك

---

(١) انظر الأبيات في بدائع الزهور ٥/ ٣٦٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ٧٤.

بسبب شيخوخته، إذ كان ابن إياس إذ ذاك شيخاً يجاوز السبعين من عمره. غير أن ابن إياس كان أديباً ومفكراً كبيراً، يتصل بأكابر عصره، وكان في وسعه أن يتحرى من المصادر والجهات المطّلعة، وكان يشهد بعينه كثيراً من المناظر والآثار المادية لما يدوّن من الحوادث. ومن ثم كانت أهمية روايته ونفاستها.

ج ـ نظم السياسة والحكم والإدارة: يعرض ابن إياس لهذه النظم في سياق روايته خير عرض. ويعتبر نظام البلاط والحكومة المملوكي من أغرب النظم الملوكية، وفريداً من نوعه لجهة تنظيمه الاداري وعلاقة أفراده فيما بينهم، فقد كان نظاماً هرمياً على رأسه السلطان، يليه الأمراء كل حسب مرتبته، ثم الأجناد على اختلاف فئاتهم ومراتبهم.

يعتبر السلطان رأس الجهاز الاداري والعسكري المملوكي، ولا يخرج عن كونه أميراً مميزاً بين الأمراء الذين يقومون بخدمته. وفي غياب نظام ما لوراثة السلطنة، كانت مؤهلات الأمير الشخصية وما يتمتع به من حنكة ودهاء، وما يبديه من بلاء في الحروب. ومن إحسان في السياسة، ومن قدرة على الانتفاع من الفرصة السانحة، وما يستطيع جمعه حول نفسه من مماليكه الأخصاء، وغيرهم من محبّيه، ومن ذوي المطامع، ممن يكوّن له منهم عصبية قوية يُخشى بأسها، كل هذه الأمور، كانت تقرب الأمير تدريجياً، أو قد تقذف به أحياناً إلى المناصب الكبرى، مثل أتابك العسكر أو نائب

السلطنة، فيصبح قاب قوسين أو أدنى من منصب السلطنة، بل انه إذا ما وصل إلى مرتبة النيابة والكفالة أو الأتابكية، يقع في نفسه أن الأقدار تهيئه بذلك لتولي السلطنة، فيعمل لبلوغ أمله هذا، بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة حتى لنجده في أغلب الأحوال يدبر لسلطانه المكائد، ويخلق حوله المشاكل، ويحيك من أجله سلسلة من المؤامرات، تنتهي غالباً بخلع السلطان أو قتله، ووثوب النائب أو الأتابكي إلى كرسي المملكة.

فالأتابكي «قطز» خلع الملك المنصور «نور الدين علي بن المعز» سنة ٦٥٧ وتولى مكانه[١] . والأتابكي «بيبرس البندقداري» قتل بيده سلطانه «قطز» ووثب على عرش السلطنة سنة ٦٥٧ هـ[٢] . والأتابكي «شيخ المحمودي» خلع سلطانه الخليفة «المستعين بالله» وتولى السلطنة سنة ٨١٤ هـ[٣] .

وتعتبر هذه الحالة أمراً عادياً في دولتي المماليك. ومعنى ذلك أن نظام الوراثة لم يكن مرعياً لديهم، وإن كان لا يمنع القول أن أسرة المنصور قلاوون، كان لها نصيب كبير من وراثة الملك في الدولة البحرية. وأن أسرة «برقوق» كان لها نصيب آخر أقل من ذاك في وراثة الملك في الدولة البرجية.

(١) ابن إياس: ١/ ٣٠٢.

(٢) ابن إياس: ١/ ٣٠٦.

(٣) ابن إياس: ١/ ٨٢٨.

وقد ولي بعضهم بناء على وصية من أبيه بذلك. فإن المنصور «سيف الدولة أبا بكر» بن الناصر محمد بن قلاوون، قد بويع بالسلطنة بعد موت أبيه بعهدٍ منه. وقد يكون هذا العهد لولد غير الابن الأكبر، مثل عهد الناصر محمد إلى ولده المنصور. .

غير أن مبايعة السلطان لا يمكن أن تتم في الواقع إلاّ بعد أن يتشاور الأمراء في الأمر فيما بينهم، ويقع اختيارهم على من يصلح للملك، ثم ان هذه المشورة قد تستغرق زمناً، وفي خلال هذا الزمن يحكم المماليك البلاد بلا سلطان. فبعد مقتل لاجين، دبّر الأمراء الأمر، حتى عاد الناصر(1) . وقد بقيت السلطنة شاغرة يومين عقب انكسار السلطان «قانصو بن قانصو» واختفائه(2) . ثم تولى السلطنة الأتابكي «جانبلاط» وبعد قتل الغوري بقيت البلاد نحو خمسين يوماً بلا سلطان، ثم ولي السلطنة «طومان باي»(3)

---

(1) يذكر ابن إياس أنه لما ورد النجّاب على الملك الناصر، تكاسل عن الحضور وثبت حتى يرى ما يصير بمصر من حال الأمراء، فابطا واحداً واربعين يوماً حتى دخل إلى مصر، وأقامت مصر بلا سلطان هذه المدة إلى أن حضر. - ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٤٠١.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٤٣٦، ٤٣٩.

(3) ذكر ابن إياس أن الخطباء لم يذكروا في الخطبة اسم سلطان ولا يدعون له نحو خمسين يوماً بل كانوا يدعون للخليفة. - ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ١٠٥.

وقد درج أمراء المماليك، بعد وفاة السلطان أو خلعه، أو قتله مثلاً، على أن يعقدوا مجالس للشورى، يتبادلون فيها الرأي فيمن يصلح للسلطنة، حتى إذا ما انعقد على شخص ما، أحضروه في حفلة رائعة، يتقدم فيها الخليفة ثم القضاة بمبايعته ثم يقبّل الأمراء له الأرض، بعد أن يلبس شعار السلطنة، ويحمل في موكب، وعلى رأسه القبّة والطير، إلى أن يجلس على كرسي السلطنة. فتجرى رسوم الحفلة المذكورة، وعلى أثرها يوزع عليهم الخلع والعطايا والوظائف السنية، فيرقي من يشاء، ويقر من يشاء، ويعزل من يشاء[1].

فإذا وقع اختيارهم على معهود إليه بالملك من أبيه المتوفى، أو على ابنه، أو أخيه ولو لم يكن معهوداً إليهما، أو كان صغيراً، أقاموا له رسوم التولية وقبلوا الأرض بين يديه. غير أنهم لا يستمرون على طاعته، إلاّ بمقدار ما في هذا الاستمرار من نفع شخصي لهم. لا لأنه وارث شرعي للسلطنة، ولا لأنه أصبح ذا حق قانوني فيها، ولا لأنه واجب الطاعة أو أن في طاعته مصلحة للشعب تهون عندها المصالح الخاصة.

وإذا شعر أحد الأمراء، أو فريق منهم، بأنه لم ينل

(١) انظر على سبيل المثال حفل تنصيب السلطان الملك الأشرف أبو النصر جانبلاط في بدائع الزهور ٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠، وقايتباي ٣/ ٤ - ٥، والناصر حسن ١/ ٥١٦ - ٥٢٠.

في عهد السلطان الجديد مآربه، أو أنه إذا انتفض عليه وثار في وجهه، ينال ممن يخلفه هذه المآرب، فسرعان ما ينتقض عليه ويثور في وجهه، ويدبّر له المكائد، ويضخّم عيوبه، وينشر مثالبه.. ثم قد تمكن الفرصة الثائر من أن يطغى على سلطانه، فيقتله أو يسجنه أو ينفيه، ويحل غيره محله. وقد يكون هذا الغير ممن لا يمتون بصلة إلى بيت الملك السالف.

ومن السلاطين من كان صغير السن، ولذلك طمع فيه الطامع بسرعة، وثار في وجهه، ونزعه من السلطنة وتولى من بعده، فحينما تولى الناصر محمد بن قلاوون السلطنة أول مرة، وسنّه تسع سنوات، حكم أحد عشر شهراً، ثم خلعه كتبغا المنصوري، وتولى بنفسه السلطنة سنة ٦٤٩ هـ[١]. وكذلك وقع في عهد الملك الصالح «حاجي بن شعبان، حفيد قلاوون، حينما تولى أول أمره وعمره أحد عشر عاماً. فحكم نحو سنة وسبعة أشهر، ثم خلعه «برقوق» وتولى بنفسه السلطنة عام ٧٨٤ هـ[٢] وأسس الدولة البرجية الجركسية.

ولم تكن هناك نظم للوصاية على السلاطين الصغار تحفظ حقوقهم في الملك، وتنشئهم تنشئة ملكية مناسبة، تؤهلهم لأعباء السلطنة المقبلة. ويندر أن نجد سلطاناً ترك من خلفه طفلاً يلي السلطنة من بعده، ثم أوصى عليه أحد الأمراء

---

(١) بدائع الزهور ١/ ٢/ ٣٨٦.

(٢) بدائع الزهور ١/ ٢/ ٣١٠.

الكبار. وإذا ما أوصى فيغلب أن ينتزع الوصي الملك منه.
ولم يرو ابن إياس في «البدائع» من أخبار الوصاية إلّا لمحات يشعر معها المرء أن نظام الوصاية لم يكن مرعياً، ومما رواه ما ذكره في ترجمة الناصر حسن قال: «في سنة ٧٥١ هـ جمع السلطان حسن القضاة الأربعة وسائر الأمراء ورشدّ نفسه، واستعذر الأوصياء. فأعذروا له في ذلك»[١] .

وحقاً كان يعاون الملك الصغير كبير من الأمراء، أتابكاً أو نائب السلطنة أو غير ذلك فيصرّف له شؤون الدولة. ولكن مع هذا كله، كان الملك الصغير يجلس مع الأمراء مجلس السلطان، وتقدم إليه الأوراق الرسمية، فيمهرها بتوقيعه، ويرقي أو يعزل من يشاء. كما يفعل السلطان الكبير تماماً، ولو أن تصرفه هذا كان صورياً. فقد روى ابن إياس[٢] أن الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون تولى الملك عام ٧٤٨ هـ فأهدى خلع الوظائف وألقاب الإمارة إلى من شاء وعمره ١٣ سنة. وروى كذلك[٣] أن الأشرف كجك بن الناصر محمد ولي الملك عام ٧٤٢ هـ وسنه سبع سنوات، فتصرّف في الأحكام صغيراً، وعاونه الأتابكي «قوصون». فكان إذا احتاج إلى توقيع السلطان أخذ «قوصون» بيد «كجك» والقلم فيها

---

(١) بدائع الزهور ١/ ١/ ٥٣٦.

(٢) بدائع الزهور ١/ ٥١٩/١ ـ ٥٢٠.

(٣) بدائع الزهور ١/ ١/ ٤٩١.

فيريه كيف يوقّع على المراسيم والمناشير، وهكذا كان الحال في عهود غيرهما من السلاطين الصغار. هذا وإذا اختار الأمراء عليهم سلطاناً، فالمفروض أنه سلطان مدى حياته. ويستمر فعلاً سلطاناً، حتى تصادفه وفاته الطبيعية. إلّا إذا عاقته ثورة جامحة تكون فيها عاقبته من خلع أو سجن أو إعدام أو نفي أو اختفاء. ويندر أن يخلع سلطان بدون ثورة، أو نزاع بين أنصاره وأعدائه، كما يندر أن يولى سلطان تولية مؤقتة ريثما يُعيّن سلطان سواه تعييناً دائماً. وقد حدث ذلك مرة واحدة في تاريخ دولتي المماليك، حينما خلع الملك المؤيد أحمد بن إينال عام ٨٦٥ هـ وأرسل الثائرون إلى الأمير «جانم» نائب الشام ليتولى السلطنة[١] . ثم ولوا فيها مؤقتاً الأتابكي «خشقدم» فتلقب الظاهر. وانتظر الجميع عودة «جانم» ولكنه أبطأ في العودة، فساعدت الظروف الظاهر «خشقدم» على أن يثبت في السلطنة ولبث يحكم نحو ست سنوات.

والأمراء هم أصحاب الأمر في تولية السلطان. ولكن ذلك لا يتم بناء على قانون موضوع وقواعد مدونة محكمة، وإنما هو العرف جروا على اتباعه. أما الجند فهم من ورائهم يشدون أزرهم، وليس لهم رأي فعلي قاطع وقت الشورى في أمر السلطنة. وإن كان الأمراء يراعون حيناً اتجاه رأي الجنود. ومع ذلك فقد تدخل الجنود في التولية في أخريات الدولة

---

(١) بدائع الزهور ٢/ ٣٧٧.

الجركسية، ومن ذلك تدخلهم عقب اختفاء الظاهر بن قانصو عام ٩٠٥[١] في أمر من يخلفه، فقد كان أمام ثلاثة مرشحين، هم: تاني بك الجمالي، والأتابكي «جانبلاط»، والدوادار «طومان باي» وكان هناك مرشح رابع ايضاً هو الأمير «قانصو خمسمائة» الذي قد ملك آناً ولم يثبت ملكه ولم يعترف به فاختفى. فنادى الجنود على «قانصو خمسمائة» إذا أراد ان يظهر من خفائه، فليظهر، لتسند إليه السلطنة. فلم يظهر ثم عرض اسم «تاني بك الجمالي» فرفضه الجند. ثم انحصر الأمر بين «جانبلاط»، و «طومان باي» وكان طومان باي مقرباً من الجند وصديقاً لجانبلاط، ورغبتهم موجهة إليه، فعرض اسم «جانبلاط» للسلطنة فلم يرضه الجند. ولكن طومان باي تعصب له وأمالهم إليه، فاستقر الرأي على اختيار «جانبلاط» في السلطنة، فكانت سلطنته تمهيداً لسلطنة «طومان باي» إذ خرج عليه وحاربه وهزمه وتولى مكانه[٢].

والأمراء كذلك هم أصحاب الأمر في خلع السلطان، وإزاحته من السلطنة بأي شكل. ويندر أن يتم ذلك بدون فتن ومؤامرات فيما بينهم، ينقسمون فيها فريقين: فريقاً مع السلطان وفريقاً عليه، يحتربان حتى ينتصر احدهما. أما الجند فالغالب أنهم ذوو رأي مرعي وأثر فعلي في مسألة خلع

---

(١) بدائع الزهور ٣/ ٤٣٦.

(٢) بدائع الزهور ٣/ ٤٦١ - ٤٦٧.

السلطان أو إبعاده عن كرسيه، لأنهم هم الذين يعززون الفريقين المتناجرين من الأمراء، فتدخلهم في الخلع أوضح من تدخلهم في التولية.

وهناك عنصر ثالث في تولية السلطان، وهو الخليفة والقضاة الشرعيون الأربعة. فلا بد لتمام التولية من حفل المبايعة الذي يتقدم فيه الخليفة أولاً إلى السلطان المختار فيبايعه بالسلطنة. ثم يتبعه القضاة فيبايعون، ثم من بعدهم الأمراء. ولا تتم تولية السلطان بغير ذلك غير ان الخليفة والقضاة ليسوا ذوي رأي مرعي في التولية والخلع، وإنما هم مأمورون يؤدون ما أُمروا به، ولا قدرة لهم على الامتناع عن المبايعة ما دامت مشورة الأمراء قد تمت ومن السهل إذا ما حدثتهم نفسهم بالامتناع عن المبايعة أن يُصرفوا عن وظائفهم، ويقلد سواهم، فيقوم بما يطلب منه من المبايعة على خير وجه.

وقد اشتد تزاحم الأمراء حول منصب السلطنة، وكثر تطلعهم إليه. وبسببه كانت تثور ثائرتهم وتدبر مؤامراتهم. مع العلم بأن هذا المنصب كان كثير الأعباء، ثقيل الحمل على عاتق صاحبه لأنه قلّ ان يفلته الاّ مخلوعاً أو منفياً أو مسجوناً أو مقتولاً، فوق ما يلاقيه في حياته من اذى المؤمرات والفتن أو مسؤوليات الحروب أو غير ذلك. ولذلك كان بعض السلاطين يتأبى على الأمراء، حين اختياره للسلطنة، ويمتنع عن قبولها من أعبائها ورهبة من مسؤولياتها. ومنهم الغوري

الذي قيل انه امتنع عن قبولها وألبسه الأمراء خلعة السلطنة، ودمعه يجري رهبة منها. ولذلك كان بعض السلاطين يلجأ إلى دعوة الأمراء الذين اختاروه للسلطنة إلى ان يقسموا له يمين الطاعة والإخلاص على المصحف العثماني[1] . وحينما رجعت فلول الجيش المملوكي بعد هزيمة الغوري في «مرج دابق» وبعد قتله. وقع إجماع الأمراء على سلطنة «طومان باي» وكان نائب غيبة. فامتنع عن قبولها وأصر الأمراء على توليته، وهو يمتنع. ثم ركب هو والأمير «علان» وجماعة من الأمراء وتوجهوا عند الشيخ «أبي السعود الجارحي» فلما جلسوا بين يديه، عرض الأمراء عليه الأمر، وذكروا تمنع طومان باي عن السلطنة. فأبدى طومان باي عذره، واحتجّ بأن خزائن بيت المال خاوية على عروشها، وأنه لا يقبل السلطنة إلاّ إذا تعهد الجنود والأمراء بألا يطالبوه بنفقة، وأن الجميع رهن إشارته، لا يخونونه ولا يعصونه إذا استعد للحرب، بمناسبة زحف العثمانيين على البلاد. ولما تراضى الجميع بين يدي الشيخ، أحضر لهم مصحفاً شريفاً فأقسموا عليه بما تراضوا وتواصوا به. ثم جرت بعد ذلك رسوم التولية كالمعتاد.

أما الرتب والمناصب الهامة في الدولة فيفهم مما نثره ابن إياس في ثنايا بدائع الزهور[2] أن مناصب الدولة، عدا

---

(١) بدائع الزهور ٣/ ٣٩٩.

(٢) بدائع الزهور ٥/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

منصب السلطنة كانت مقسمة بين نوعين من الرجال هما: المتعممون، والأمراء. وقد أطلق لفظ «المتعممين» على المثقفين من أبناء الشعب، المتخرجين في المساجد، النابغين في علم أو أدب. وهؤلاء يختار منهم: قضاة القضاة ونوابهم ومساعدوهم، وكتّاب الدواوين ومعاونوهم، وكتاب السر وشيوخ المدارس والخوانق وما إلى ذلك، أي تركت لهم مناصب القضاء والكتابة والتعليم وما يتصل بها. ولهؤلاء أجور ورواتب وضروب من المعونة، يمنحونها من أوقاف أو نحوها لقاء أعمالهم.

أما الأمراء، فأصلهم من معتوقي المماليك، الذين سمت بهم همتهم وحظهم، إلى مرتبة الإمارة. ولكل واحد من هؤلاء إقطاع يمنحه فيستغلّه وفق هواه، أو يتناول منه مالاً معيناً. ويتغيّر إقطاعه ويعطى أوسع منه، كلما ترّقى، ويرد الإقطاع إلى السلطان ليمنحه إلى أمير آخر إذا توفي صاحبه أو عطِل.

ويعتبر الأمراء جميعاً أعضاء عاملين في الجيش إلاّ من غضب عليه السلطان منهم، فنفاه وجعله «طرخاناً» أي عاطلاً عن العمل. ولكل أمير رياسة على طائفة من الجنود محدودة، حسب مرتبته. ومن هؤلاء الأمراء من يشغل بجانب إمارته، وظيفة من وظائف الدولة أو أكثر، ومنهم من يكون بلا وظيفة. والوظائف التي توكل إلى بعضهم، هي ما عدا وظائف القضاء والكتابة والتعليم، وما يتصل بها مما اختص به المتعمّمون، مقصور على طائفة الأمراء دون سواها. ويندر أن يوظف في

إحداها متعمم، إلّا إذا كان عملاً كتابياً.

ورتب الإمارة رتب عسكرية، وتمنح عادة في حفل عظيم، وبخاصة عقب حفلة توليه سلطان جديد، وقلّ أن تمنح ألقاب الإمارة[1] لأحد من أبناء السلاطين بل يعرفون بـ «الأسياد» إلّا أنهم يشتركون مع أبناء الأمراء الآخرين في حمل لقب «أولاد الناس» وقد أعطي أولاد الناس الجوامك وكذلك منحوا الإمرات المختلفة بإقطاعاتها. وكان اختصاص الوظائف التي يشغلها هؤلاء الأمراء يتقلّب ويختلف باختلاف السلاطين. ويتتبع ابن إياس هذه التقلبات بعناية، ويذكر أسماء القضاة والوزراء والأمراء والنواب، وغيرهم من كبراء الدولة في كل حكم. ونرى مما يذكر إلى أي حد كانت دولة المماليك البرجية الجركسية، تمعن في المركزية والاستئثار بالسلطات. فلم يكن بيد المصريين من مناصب الدولة سوى القضاء في الغالب. كما نرى كيف كانت المناصب سلعة تباع وتشترى في أغلب الأحوال، ويتجر فيها السلطان والأمراء والقضاة. وكيف كانت الحقوق والأموال، بل الأرواح في كثير من الأحيان، معلقة على نزعات العسف والتحكّم والهوى. وأول الموظفين الكبار الذين ساعدوا السلطان في شؤون الحكم والإدارة هو نائب السلطنة. وكان بمثابة الوكيل عن السلطان وساعده الأيمن

---

(١) بدائع الزهور ٥/ ٣ - ٦ وانظر صبح الأعشى تحت عنوان: من أحوال المملكة وما عليه ترتيب المملكة وكذلك خطط المقريزي.

في تصريف شؤون الدولة، ويشترك معه في إصدار القرارات ومنح ألقاب الإمارة وتوزيع الإقطاعات، فضلاً عن تعيين كبار الموظفين. لذلك تلقّب بنائب السلطنة بلقب «كافل بكثير من أمور الدولة». وكانت نيابة السلطنة على نوعين في عصر المماليك، فهناك النائب الكامل أو نائب الحضرة، وهو الذي ينوب عن السلطان أثناء وجوده وإقامته في مصر، وهناك نائب الغيبة، وهو أقل درجة وينوب عن السلطان أثناء غيبته فقط، في حرب أو حج أو غير ذلك.

أما نواب السلطنة في نيابات الشام، وهي دمشق وحلب وطرابلس وحماة، وصفد، والكرك، فناب كل منهم عن السلطان في نيابته، واعتبر ممثلاً له في إدارتها. وكان على نواب الشام أن يرجعوا إلى السلطان، أو نائبه في مصر، في المسائل التي لا يستطيعون الانفراد بالبت فيها. ولما كان هؤلاء النواب مسؤولين عن الدفاع عن إماراتهم ضد الأخطار الخارجية والداخلية، حرص السلاطين على اختيارهم من كبار الأمراء أرباب السيوف المعروفين بشجاعتهم الحربية ومهارتهم الإدارية[1] .

وبعد نائب السلطنة يأتي الأتابك، وهو القائد العام للجيش المملوكي. وكان لقب أتابك يطلق عند السلاجقة على المؤدب أو المربي أو الوصي، ثم أصبح من ألقاب التشريف

---

(١) عاشور: العصر المماليكي ص ٣٥٥.

التي تخلع على كبار الأمراء، حتى غدا في عصر المماليك لا يطلق إلّا على قائد العسكر. وقد تمتع صاحب هذه الوظيفة بنفوذ كبير وكلمة عالية في الدولة بوصفه صاحب القوة الضاربة بين كبار الأمراء[1] . ولا أدل على نفوذ الأتابكة وقوتهم من أن كثيراً منهم وصلوا إلى عرش السلطنة، إما عن طريق الاغتصاب أو بفضل قوّتهم. أما إذا ولي الحكم سلطان قاصر، فإنه كان يصبح العوبة في يد أتابك الجيش يتحكم فيه كيفما شاء، كما فعل الأمير زين الدين كتبغا المنصوري عندما استبد بالسلطان الناصر محمد في سلطنته الأولى، حتى انتهى الأمر بالأتابك إلى إعلان نفسه سلطاناً سنة ١٢٩٤ م[2] .

أما الوزير فكان هو الآخر يلي نائب السلطنة في المرتبة. وإن تضاءل نفوذه عما كان عليه، ذلك أن نائب السلطنة في دولة المماليك أصبح الرجل الثاني في الدولة. وبذلك لم يترك للوزير شيئاً من ذلك النفوذ الواسع الذي تمتع به في العهود السابقة. ويعبّر ابن خلدون عن انحطاط وظيفة الوزير في عصر المماليك، فيقول إنها غدت «مرؤوسة ناقصة»[3] ، بحيث لم يتعد نفوذ الوزير عندئذ تنفيذ تعليمات السلطان ونائبه،

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ١٨.

(٢) علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٨.

والإشراف على شؤون الدولة المالية بالاشتراك مع ناظر الدولة. وفي بعض الأحيان عين سلطان المماليك وزيرين في وقت واحد أحدهما من أرباب الأقلام أو المعمّمين وأطلق عليه وزير الصحبة، والثاني من أرباب السيوف أو الأمراء وأطلق عليه الوزير فقط[1] . ولا أدل على تناقص أهمية الوزارة في عصر المماليك، من أن هذه الوظيفة كانت تلغى في بعض الأحيان، أو تظل شاغرة دون أن يحدث خلل في الجهاز الإداري للدولة، بل لقد حدث أن ألغيت وظيفة الوزارة سنة ٧٢٧ هـ /١٣٢٧ م،وظل منصب الوزير شاغراً سبعة عشر عاماً إلى أن أعيد سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م.

وهناك فريق آخر من كبار الموظفين قاموا بدور هام في إدارة جهاز دولة المماليك، هي فئة الولاة التي كان أفرادها يختارون دائماً من الأمراء ليديروا شؤون النيابات في مصر وخارجها.

وكان من الطبيعي أن يعتمد هذا الجهاز الإداري الضخم الذي شهدته دولة المماليك على مجموعة من الدواوين الكبيرة لإدارة مرافق الدولة العامة العديدة. وأهم هذه الدواوين الحكومية: ديوان الجيش، وديوان الإنشاء، وديوان الأحباس، وديوان النظر، وديوان الخاص، وديوان القضاء والمظالم.

ومهما يكن من أمر، فإن دولة المماليك شهدت نظاماً

---

(١) عاشور: العصر المماليكي ص ٣٥٦.

إدارياً بالغ الدقة، ونهض بذلك النظام مجموعة كبيرة من الموظفين. وقد انقسم الموظفون إلى قسمين كبيرين: أرباب السيوف وأرباب القلم. أما أرباب السيوف فكانوا من طبقة المماليك، أي أنهم لم يختاروا من المصريين، في حين كان أرباب القلم من طائفة المعمّمين، أي من المصريين المتشغلين بالكتابة والعلم. ويبدو أن الموظفين، كبارهم وصغارهم، لم يتمتعوا بقدر كبير من الاستقرار في هذا العصر، وهذا في الواقع لا يعدو أن يكون جزءاً من الطابع العام الذي اتصفت به دولة المماليك. وكثيراً ما كان الموظف يتعرض للعزل أو الحبس، أو الإعدام لمجرد ظنون وأوهام، أو لعدم قدرته على إرضاء أولي الأمر. فإذا أعفي الموظف من عمله فرضت عليه رقابة، وربما ألزم بالإقامة في مدينة بعيدة مثل القدس، أو قوص، أو مكة، وذلك خشية أن يسبّب متاعب للحكام.

٦ ـ منهجه وأسلوبه:

سار ابن إياس في إثر المدرسة التاريخية المصرية التي جنحت من التعميم إلى التخصيص، ورأت أن تعنى قبل كل شيء بتاريخ مصر والإفاضة فيه. وقد افتتح هذه المدرسة المقريزي، وكان أعظم أساتذتها، بخططه وآثاره الخالدة، وبرز فيها أبو المحاسن بن تغري بردي، والسخاوي. هذه المدرسة وهبت مصر الإسلامية أكبر وأنفس مجموعة من المجموعات

والوثائق، وامتازت بالأخص بتدوين حوادث عصرها بطريق المشاهدة. وقد نشأ ابن إياس في أواخر عهدها فسار على تقاليدها من تدوين تاريخ مصر. غير أن ابن إياس لم يرد على ما يظهر أن يكتب تاريخ مصر كله بنفس الإفاضة، التي يتميز بها القسم الأخير من هذا التاريخ، فبينما نراه يجمل تاريخ الفن الإسلامي والدول الإسلامية الأولى، وبينما يتناول تاريخ دول المماليك الأولى بشيء من التوسع، إذا به ينقلب إلى الإسهاب والإفاضة منذ بدء القرن التاسع، فإذا كانت أواخر هذا القرن، وهو العصر الذي عاش فيه ابن إياس ووعى صوره وأحداثه، ألفيناه يجعل من تاريخه نوعاً من السجل اليومي، لا يفوته أن يدوّن فيه كثيراً من الحوادث العامة والخاصة.

في هذا القسم من روايته، التي تتناول حوادث عصره، وهو يشمل زهاء نصف قرن، من أواخر القرن التاسع إلى سنة ٩٢٨ هـ، يبدي ابن إياس نوعاً من الطرافة والبراعة، ويبدي بالأخص دقة في الملاحظة، ومقدرة لا بأس بها في تحليل الأنفس والعواطف. وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى سير الحوادث نفسها، وإلى المفاجآت والوقائع الغريبة التي قدّر للمؤرخ أن يشهدها في خاتمة حياته. فهي التي تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق. ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المستهتر الطروب في بعض أثوابه الحقيقية، وأن نقرأ في سلوكه وتصرفاته كثيراً من عواطفه وميوله وبوادر نفسه، وأن نقف على صور شائعة من عاداته

وأحواله الاجتماعية. وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها.
ولكن لابن إياس فضلاً في ذلك، هو أنه يُعنى في كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة، وتتبع آثار الحوادث في نفس الشعب وطبقاته الاجتماعية المختلفة؛ فنرى في روايته طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم في سائر الطبقات، اجتماعياً واقتصادياً، ولا تبحث إلاّ عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها، عاش الناس أم هلكوا، ونشعر بوحي القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحاً في سياسة السلاطين، كما نراهم سنداً للسلاطين في إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوى والأحكام. ونرى الطبقة الوسطى منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط في مجرى الحوادث. أما الطبقة الدنيا فنراها صاخبة ثائرة، تظهر في طليعة كل اضطراب، ولكنها كعادتها تهدأ أو تختفي أمام القوة. ويتتبع ابن إياس حركات العامة بصفة خاصة، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم، من غضب ورضى ومرح واكتئاب، في نبذ ممتعة كثيراً ما تثير الابتسام.

ويستعمل ابن إياس في رواية الحوادث والأوامر العامة لغة الدواوين، أو اللغة الرسمية، كما انه يستعمل العبارات والأساليب التي كانت سائدة في ذلك العصر، في التعبير عن كثير من شؤون الحياة الاجتماعية، وفي تصوير كثير من العادات والأحوال. وهذا وجه طريف في روايته، فهو لا يلجأ إلى أسلوبه وعباراته الخاصة حيثما كانت هنالك لغة رسمية أو

عبارات ذائعة متداولة. فنراه مثلاً يتحدث دائماً عما «يرسمه» السلطان من الأوامر، وعمن «يرسم» بشنقهم أو توسيطهم من الكبراء أو العامة، وعمن يقضي بإقامتهم في «الترسيم»، أي الاعتقال أو الحجز، لدين أو جرائم؛ ويذكر في مواضع كثيرة كيف كان السلطان أو الوالي أو المحتسب يشهر في القاهرة «المناداة بالأمان والاطمئنان، والبيع والشراء» كلما حدثت فتنة أو سرى إلى الناس جزع أو انزعاج، ويورد الأوامر والنداءات في ذلك وغيره بألفاظها الرسمية، وكيف كان ينذر المخالفون دائماً «بالشنق بلا معاودة»[1] . كذلك يصف لنا حياة البلاط والمواكب السلطانية وغيرها من المواكب العامة، وكيف كان السلطان يشق القاهرة[2] ، فتفرش له الشقق الحرير في الطريق، وترتفع له الأصوات بالدعاء والنصر، وتنطلق له النساء بالزغاريت من الطيقان».

ويشير ابن إياس دائماً إلى شؤون العصر وعاداته الاجتماعية، فيصف الحفلات والأعراس والجنائز الشهيرة، في عبارات واحدة دائماً كقوله عن حفلة زواج شهيرة: «فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة، قيل اجتمع فيه من المغنيات،

---

(١) بدائع الزهور ٣/ ٤٢٧ـ طبولاق و٥/ ٦٥ طبعة محمد مصطفى.

(٢) بدائع الزهور حوادث ٨٢٢ هـ ٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩ وكذلك نجد وصفاً لموكب السلطان الغوري في حوادث عام ٩١٦ هـ ٤/ ٢٠٢ الخ..

خمس وعشرون ومئة، ومدوا منه أسمطة حاملة من الأطعمة الفاخرة. وكان من المهمات المشهورة «وهكذا» وهي لغة العصر الاجتماعية يوردها ابن إياس دائما في مواطنها إلى جانب اللغة الرسمية.

ويصف ابن إياس الخلع الملوكية أيضاً، وثياب الأمراء، والقضاة والجند، والخاصة والعامة، وما يعتورها من تحوير وتغيير؛ كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء، وتغييرات النقد وآثارها في المعاملات. وعلى العموم فإنه يصور لنا في سياق روايته مجتمع عصره سواء في الحياة العامة أو الخاصة، أو في الخلال والعادات، والميول والأهواء، تصويراً قوياً شائقاً. وعلى هذا المنوال، فإن ابن إياس كان يدون الحوادث شهراً فشهراً في الأجزاء الغير معاصرة من كتابه، ثم يوماً بعد يوم في الأجزاء الأخيرة منه. واصفاً الأحوال الداخلية في مصر إبان الفترة الأخيرة من الدولة المملوكية، دون أي تمييز لناحية خاصة منها؛ سواء عنده أن يكتب عن ولاية الحكام والخلفاء ووفاتهم أو خلعهم وما يصحب ذلك من ثورات داخلية وطغيان المماليك، أو عن النظم الإدارية والحربية وما بقي منها من القديم وما تجدد وما ألغي منها أو عُدّل، أو أن يكتب عن الحياة العامة والحالة الاجتماعية والأعياد والمواسم والحفلات الشعبية ومواكب الخلفاء والسلاطين. واستقبال سفراء الدول الأخرى وما يرتبط بذلك من خلع وهدايا ورسائل، أو الحالة الاقتصادية وأسعار

المحاصيل والمسكوكات من الذهب والفضة والنحاس، أو ما ابتليت به البلاد من أوبئة وأمراض وتعداد من توفي أثناء مثل هذه الفصول، أو الأرصاد الجوية من خسوف القمر وكسوف الشمس وثورة العواصف وسقوط الأمطار والبرد والثلج، أو مناسيب النيل في زمن الفيضان والتحاريق، أو ما أنشىء من مبان وعمائر ومساجد وربوع وقباب ومدافن، أو أخبار العلماء والأدباء والشعراء والأعيان، وتراجم من توفيّ منهم يوردها في حينها وفي مكانها بين كل تلك الأخبار. يكتب عن كل هذا باختصار وعزوف عن الإطالة والاطناب. ولكن بما يدل على دقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق، وصرامته في الحكم على الناس دون محاباة أو تملق.

ونحن نرى أن ابن إياس في كتابه يحاول أن يقف بين الرواية والأخرى للشرح والنقد وقد اتّبع في كتابة تاريخه طريقة الحوليات أي حسب السنين الهجرية، وهي الطريقة السائدة في الكثرة من المؤلفات المملوكية ولا سيما الموسوعات الكبرى. وقد دفع المؤرخون المصريون ابتداء من القرن الثامن الهجري هذه الطريقة نحو مزيد من الإحكام والدقة لدرجة أصبح معها تسجيل الأحداث، وخاصة في أواخر هذا العصر، لا يتم لدى الكثيرين على أساس الشهر بل على الأساس اليومي أيضاً. ويبالغ بعضهم فلا يحدد اليوم فقط بل الفترة من اليوم أيضاً، الأمر الذي لم يكن معروفاً أو مألوفاً عند كتّاب الحوليات الأوائل. وقد استقر هذا الشكل من التنظيم الحولي

لدرجة أنه أصبح القاعدة العامة المتّبعة لا يُشذ عنها إلاّ في النادر. وقد اتبع ابن إياس المنهج الحولي في التاريخ، لأنه يناسب تأريخ الحوادث أكثر من غيره، فدوّن الحوادث شهراً بعد شهر في الأجزاء الغير المعاصرة من كتابه، ثم يوماً بعد يوم في الأجزاء الأخيرة منه، حتى بدا كأنه نوع من المذكرات اليومية التسجيلية مما يشهد بدقة ابن إياس وبرغبته في استقصاء الحقائق.

والحق أنه مما رفع ابن إياس إلى المرتبة الأولى بين مؤرخي عصره، أنه كان يحاول الوصول إلى الحقيقة التاريخية مستنداً على الأصول والمصادر التي تجعل دراسته وكتابته في التاريخ دقيقة وسليمة ومبنية على أسس صحيحة. أما في الأجزاء غير المعاصرة من كتابه فإنه يقول: «وقد طالعت على هذا التاريخ كتباً شتى نحو سبعة وثلاثين تاريخاً حتى استقام لي ما أريد»[1] . وذكر ابن إياس الكثير ممن نقل عنهم من المؤرخين مثل: ابن عبد الحكم، والكندي، وابن وصيف شاه، والقضاعي، وأبي شامة، والمسعودي، والذهبي، والواقدي، والصولي، وابن زولاق، وابن الداية، والجاحظ، وابن خلكان، وابن عساكر، والمسبّحي وابن الأثير، وابن الجوزي، والثعالبي. كذلك ذكر ابن إياس الكثير من المؤرخين الذي عرفهم وترجم لهم في كتابه بدائع الزهور

---

(١) بدائع الزهور ١/ ٣ - ٤.

مثل: خليل بن شاهين الظاهري، وبدر الدين العيني، وأبي المحاسن بن تغري بردي، وابن الصيرفي، والسخاوي، وابن طولون. كذلك خصّ بالذكر من أساتذته وشيوخه: جلال الدين السيوطي، وعبد الباسط بن خليل، واستشهد بأقوالهما وأشعارهما وذكرهما بالتقدير والاحترام والعرفان بالجميل. وكان ابن إياس يستقي الأخبار والحوادث المعاصرة له من مصادرها الرئيسية فكان يدون ما يراه، أو يسمعه أو يشعر به ويحس. كما كان على صلة حسنة بالكثيرين من خواص السلطان وكتاب السر وأعيان الدولة. فضلاً عن أخيه الجمالي يوسف، وكان من كبار موظفي الدولة المملوكية إذ تولى وظيفة «زردكاش» في القلعة، فكان يزوّده بالكثير ممّا يحتاج إليه من مواد رسمية أو سرية لتدوين حولياته.

وابن إياس لا يتحرج من ذكر مساوىء حكام عصره، فكما يذكر محاسنهم لا يجد حرجاً في تعرية تصرفاتهم، وإظهار عيوبهم وتعداد مثالبهم، ومثالب خواصهم من الموظفين. وعلى الرغم من أنه كتب الجزء الأخير من كتابه في ظل السيادة العثمانية، وانتمائه إلى العنصر التركي، فهو لا يتردد في تسخيف الأتراك والتعبير عن احتقاره إياهم.

ونلاحظ أن ابن إياس أدرك معظم المؤرخين الذين كانوا يكتبون عن العصر الذي يعيشون فيه أهمية الأخبار المستقاة من المصادر الرئيسية. وقد تتبع حوادث مصر والقاهرة وكتب عنها حسب مشاهداته وإحساساته وما يصله من معلومات.

وكثيراً ما استعان ابن إياس بأشعاره أو أشعار غيره من شعراء ذلك العصر للتعبير عن الانفعالات التي كانت تتولد في أعماقه بسبب حالة سياسية أو اجتماعية معيّنة، لذا نرى مؤلفه «بدائع الزهور»، طافحاً بالكثير من الأبيات والمقطعات الشعرية، فهو يبدو من خلال أشعاره أنه عاش فرداً متتبعاً عن كثب حوادث المجتمع الذي تقلّب فيه، وليس ذلك بصفته مؤرخاً معنياً بتدوين الوقائع والأخبار، بل لأنه كان إنساناً يتأثر بما حوله، وبما كان يجري في دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال. وهذه الأشعار التي نظمها ابن إياس أو اقتبسها عن شعراء معاصرين تصلح كمصدر مهم يفيد مؤرخي الأدب، كما تفيد الباحثين في تاريخ مصر المملوكية من وجوه كثيرة.

ولا يرقى ابن إياس من حيث اللغة والقدرة البلاغية إلى مرتبة كثير من المؤرخين وبخاصة في تأليف المناظر الجديرة بالتصوير، وتصوير الشخصيات التي يستطيع القارىء أن يتخيّلها، وتبقى واضحة في ذهنه، فأغلب تفاصيله أجفّ وأقلّ من أن تحقق هذا الغرض، ولكن التأثير الذي يتركه بالرغم من قصوره في هذه الناحية، تأثير راوية أمين لحقائق مكتشفة، ومكتشف واع يلاحظ ويدون الأمور التي تدل معرفتها على قيمتها.

وعلى هذا فقد انتقد كثير من الباحثين أسلوب ابن إياس لوجود كثير من الألفاظ العامية فيه، وذلك لانتشار اللسان

التركي في مصر بين طبقات الخاصة في العصر المملوكي، فضلاً عن وجود كثير من الألفاظ غير العربية حتى بعد تعريب مصر، وذلك لوقوع مصر في مفترق الطرق، ولوفود كثير من سكان البلاد المختلفة إليها، هذا بالإضافة إلى البقية الباقية من بعض الألفاظ المصرية القديمة التي عاشت بين المصريين. بل ان العرب أنفسهم بعد فتح مصر استخدموا كثيراً من الألفاظ والكلمات التي وجدوها في مصر وخاصة تلك التي تتعلق بالإدارة والمالية والتي لا توجد في معاجم اللغة العربية للآن. وعلى هذا فلغة ابن إياس تكشف عن عمق المؤثرات الأجنبية، فضلاً عن الفائدة التي يجنيها الباحث في دراسة تطور اللغة وعلاقة اللهجة المصرية بالفترة الزمنية التي كتب فيها ابن إياس تاريخه. والواقع أن اللغة التي كتب بها ابن إياس لغة سهلة وبسيطة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى. وهذه اللغة كانت شائعة بين مؤرخي العصر المملوكي. كما كانت تحفل بالكثير من الألفاظ والمصطلحات التركية أو تلك التي لا تضمها معاجم اللغة.

ملحق - ١

١ - الوظائف والمناصب الحكومية في دولة المماليك الجراكسة

(بدائع الزهور ٥/ ٣ - ٦)

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وتسعماية المباركة.

وكان مستهل المحرم يوم الاثنين، فكان يومئذ خليفة الوقت أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب عزّ شرفهما، وسلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قانصوه من[1] بيبردي الغوري عزّ نصره، وأما السادة القضاة الأربعة: فالقاضي الشافعي قاضي القضاة كمال الدين

(١) يلاحظ في كثير من الأسماء المملوكية لفظ «من» وهي لا تعني في معناها لفظ «ابن» الدال على البنوّة. ولا نقف في المصادر المملوكية ولا في غيرها على معنى «من» في الأسماء. ومن المرجح أن هذا اللفظ يعني النسبة إلى الشخص الذي ربّى المملوك.

الطويل، والقاضي الحنفي قاضي القضاة حسام الدين محمود ابن قاضي القضاة سري الدين عبد البرّ بن الشحنة الحلبي، والقاضي الملكي قاضي القضاة محي الدين يحيى ابن قاضي القضاة برهان الدين الدميري، والقاضي الحنبلي قاضي القضاة شهاب الدين الفتوحي أيّد الله بهم الإسلام.

وأما عدّة الأمراء المقدمين فكان عدتهم يومئذ ستة وعشرين أميراً مقدم ألف، منهم أرباب الوظائف ستة وهم: الأتابكي سودون من جاني بك العجمي أمير كبير، وكانت يومئذ إمرية السلاح شاغرة، والأمير أركماس من طُراباي أمير مجلس، والمقر الناصري محمد نجل المقام الشريف أمير آخور كبير، والأمير سودون من يشبك الدواداري رأس نوبة النوب، والأمير أنصباي من مصطفى حاجب الحجاب، والأمير طومان باي من قانصوه ابن أخي السلطان أمير دوادار كبير. وقد جمع بين الداوادرية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف.

وأما الأمراء المقدّمون غير أرباب الوظائف وهم: الأمير يخشباي من عبد الكريم وقيل من قائم نائب طرابلس كان، والأمير قانصوه من كسباي ابن سلطان جركس المعروف بابن اللوقة. والأمير قانصوه الفاجر، والأمير قانصو السيفي يشبك أبو سنّة الوالي كان، وقيل إن السلطان عيّن تقدمة إلى الأمير حسين نائب جدّة وتوجهت إليه البشائر بذلك عن ما قبل، والأمير تمر الحسني المعروف بالزردكاش، والأمير طقطباي

العلاي نائب القلعة، والأمير قانصوه كرت من تمرباي، والأمير جانبلاط المحمدي المعروف بالموتر، والأمير تاني بك النجمي، والأمير أرزمك الشريفي المعروف بالناشف، والأمير تاني بك من يشبك المعروف بالخازندار، والأمير قانصوه من يشبك المعروف بروح لو نائب قطيا، والأمير خاير بك السيفي إينال، والأمير أُزبك من طُراباي المعروف بالمُكْحل، والأمير بيبرس من عبد الكريم، والأمير أبرك الأشرفي، والأمير علان من قراجا وقد جمع بين التقدمة والدوادارية الثانية، والأمير خُدا بردى الأشرفي نائب الإسكندرية، والأمير أقباي من قانصو وقد جمع بين أمرية آخورية الثانية والتقدمة، والأمير خاير بك العلاي المعروف بالمعمار.

وأما نواب البلاد الشامية والحلبية: فالمقر السيفي سيباي من بختجا نائب الشام، والمقر السيفي خاير بك من قلباي نائب حلب، وتمراز الأشرفي نائب طرابلس، وجان بردي الغزالي نائب حماة، ويوسف الذي كان نائب القدس انتقل إلى نيابة صفد، ونائب غزة دولات باي وقد أضيف إليه نيابة القدس والكرك مع نيابة غزّة.

وأما الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف: فالأمير يوسف الناصري الذي كان نائب حماة شاد الشراب خانة الشريفة، والأمير مُغلباي الشريفي الزردكاش الكبير، والأمير نوروز تاجر المماليك، والأمير قانصو من دولات بردي أستادار الصحبة، والأمير قنبك من يخشباي رأس نوبة ثاني، والأمير

طومان باي قرا حاجب ثاني، والأمير كرتباي الأشرفي والي الشرطة، والأمير أزدمر المهمندار، والشرفي يونس نقيب الجيوش المنصورة، والأمير يخشباي قرا شادالشُوَن، والأمير يونس الترجمان، ومعلم المعلمين البدري حسن بن الطولوني، ولكن الوظيفة بيد ولده أحمد من حين كفّ بصره وانقطع.

وأما الأمراء الرؤوس نُوَب فكثير لم نوردهم هنا خشية من الإطالة.

وأما أرباب الوظائف من أعيان المباشرين المتعمّمين: فالمقر القضوي المحبي محمود بن أجا الحلبي كاتب السر الشريف ناظر ديوان الإنشاء أعزّه الله تعالى، ونائبه المقر الشهابي أحمد بن الحيعان، والمقر القضوي محي الدين بن عبد القادر الشهير بالقصروي ناظر الجيش الشريف، والزيني عبد القادر وأخوه أبو بكر أولاد الملكي مستوفيان ديوان الجيش الشريف، والمقر العلاي علي ابن الإمام ناظر الخاص الشريف وناظر الأوقاف، وكانت الوزارة يومئذ شاغرة من حين عُزِل عنها يوسف البدري، فكان القاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة ومتكلماً في ديوان الوزارة وقد جمع بين نظارة الدولة وكتابة المماليك، وكانت وظيفة الاستادارية يومئذ بيد الأمير طومان باي الدوادار، والقاضي أبي البقا ناظر الاسطبل الشريف ومستوفي ديوان الخاص، والقاضي عبد الباسط بن تقي الدين ناظر الزردخانة، والقاضي عبد الكريم اللادني مستوفي

الزردخانة، والقاضي زين الدين بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة وغير ذلك من الوظائف، وناظر الأحباس بدر الدين بن العبسي، ونقيب الأشراف السيّد الشريف أفضل الدين محمد، والأمير شرف الدين يونس النابلسي أستادار العالية كان والآن صار متحدثاً في استيفاء ديوان جيش الشام، والقاضي كريم الدين أخو القاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان والشمسي محمد بن القاضي صلاح الدين بن الجيعان متحدثان في الخزائن الشريفة، والشمسي محمد بن إبراهيم الشرابيشي متحدث في وظيفة الزمامية، والعلاي علي البرماوي متحدث في جهات الديوان المفرد وبردارية السلطان، وعبد العظيم الصيرفي متحدث في الشؤون السلطانية وأمر العليق، وغير ذلك من المباشرين وأعيان الدولة.

وأما الأعيان من الخدّام الطواشية: فإن وظيفة الزمّامية لها مدة وهي شاغرة من حين توفي الأمير عبد اللطيف الزمّام، والآن الأمير بشير من مصطفى رأس نوبة السقاة، والأمير مُرهف من قانصوه ساقي خوند، والأمير سنبل العثماني مقدّم المماليك، ونائبه جوهر الرومي، والأمير سرور الحسني شاد الحوش الشريف، وغير ذلك من أعيان الخدّام.

وفي هذه السنة تكاملت خاصكية السلطان نحو ألف ومائتي خاصكي من مشترواته، فقرر منهم جماعة كثيرة أرباب وظائف: ما بين دوادارية سكين وسلحدارية وزردكاشية وأمير

آخورية وسُعَاة، وغير ذلك من الوظائف. وقد تكامل في هذه السنة من الأمراء الطبلخانات والعشرات فوق الثلاثمائة أمير، وقد كثر العسكر وقلّ الرزق.

ملحق - ٢

معركة مرج دابق كما وصفها ابن إياس

(بدائع الزهور ٥ / أحداث سنة ٩٢٢ هـ)

تتبع ابن إياس تحرك الجيش المملوكي منذ أن رحل من القاهرة حتى وصل إلى حلب مرحلة مرحلة ثم ينتقل إلى الحديث على المعركة الفاصلة بين المماليك والعثمانيين في مرج دابق.

«.. وفيه وردت الأخبار بأن السلطان وصل إلى حلب فدخلها في يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة، وكان لدخوله يوم مشهود، وقدّامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء، كموكبه بالشام، وحمل القبّة والجلالة على رأسه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب كما فعل سيباي نائب الشام. وفي حال دخول السلطان إلى حلب وصل إليها قصّاد من عند سليم شاه

ابن عثمان ملك الروم، فقيل إن ابن عثمان أرسل إليه قاضي عسكره وهو شخص يقال له ركن الدين وأحد أمرائه يقال له قراجا باشاه، وصحبتهم سبعمائة عليقة، فنزلوا بمدينة حلب. وبلغني من الكتب الواردة بالأخبار أن السلطان لما حضر بين يديه قاضي ابن عثمان وقراجا باشاه شرع يعتبهم في أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه في حقه وأخذه إلى بلاد على دولات، فقال له قاضي ابن عثمان وقراجا باشاه: نحن فوِّض لنا أستاذنا الأمر وقال مهما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاوروني. وكل هذا حيل وخداع حتى يبطل همة السلطان عن القتال ويثني عزمه عن ذلك، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد. ومن جملة مخادعة ابن عثمان إلى السلطان أنه أرسل يطلب منه سكّراً وحلوى. فأرسل إليه السلطان مائة قنطار سكراً وحلوى في علب كبار، وكل ذلك حيل منه. ثم أن قاضي ابن عثمان أحضر فتاوى عن علماء بلادهم وقد أفتوا بقتل شاه اسماعيل الصوفي وأن قتاله جائز في الشرع، وأرسل يقول في كتابه: السلطان والدي وأسأله الدعاء لكن لا يدخل بيني وبين الصوفي فإني ما أرجع عنه حتى أقطع جادرته من على وجه الأرض فلا تدخل بيننا في شيء من الصلح. وأظهر أنه قاصد نحو الصوفي ليحاربه، والأمر خلاف ذلك. وذكروا أنه على القيسارية يقصد التوجه إلى محاربة الصوفي. ثم ان السلطان أخلع على قصاد ابن عثمان الخلع السنية. وقيل إن ابن عثمان أرسل إلى السلطان تقدمة حافلة، وللخليفة وأمير كبير سودون

العجمي... ثم ان السلطان، عيَّن مغلباي دوادار سكين بأن يتوجه إلى ابن عثمان وعلى يده مطالعة من عند السلطان الى ابن عثمان تتضمن أمر الصلح بينهما، والأمراء والعسكر منتظرون رد الجواب على ذلك...

ثم وردت الأخبار إلى حلب بأن سليم شاه بن عثمان قبض على قاصد السلطان الذي جهَّزه إلى ابن عثمان، وهو مغلباي أحد الدوادارية السكين، ووضعه في الحديد. وكان السلطان جهز الأمير كرتباي أحد الأمراء المقدَّمين الذي كان والي القاهرة إلى ابن عثمان وصحبته هدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار، وأخلع على قاضي عسكر ابن عثمان ووزيره قراجا باشاه الذي تقدم ذكر حضورهما إلى حلب، خلعاً سنية وأذن لهم بالعودة إلى بلادهم، وكان هذا عين الغلط من السلطان الذي أطلق قصَّاد ابن عثمان قبل أن يحضر مغلباي دوادار سكين ويظهر له من أمر ابن عثمان ما يعتمد عليه. فلما وصل الأمير كرتباي عينتاب بلغه أن ابن عثمان قد أبى الصلح وأنه بهدل مغلباي ووضعه في الحديد وقصد شنقه حتى شفع فيه بعض وزرائه، وقد حلق لحيته وقد قاسى منه من البهدلة ما لا يمكن شرحها.

فلما تحقق الأمير كرتباي ذلك رجع إلى حلب وأعلم السلطان بما فعله سليم شاه بن عثمان، وأن طوالع عسكره قد وصل إلى عينتاب فهرب نائبها، وملك عسكر ابن عثمان قلعة ملطية وبهسنا وكركر وغير ذلك من القلاع. فلما وصل كرتباي

بهذه الأخبار الردية إلى السلطان اضطربت أحواله وأحوال العسكر قاطبة. ثم ان السلطان أخلع على الأمير عبد الرزاق وولّاه على إقليم أولاددذو الغادرية، فخرج من حلب وصحبته ملك الأمراء خاير بك في موكب حفِل، فخرج نائب حلب وأمراء حلب وعساكرها ونزلوا في حلب بيوم وصحبتهم من المشاة خمسة آلاف ماش. ثم خرج بعده ملك الأمراء سيباي نائب الشام، وتمراز نائب طرابلس، وطراباي نائب صفد، ونائب حمص ونائب غزة، فخرجوا من حلب يوم السابع عشر من شهر رجب، وقد أشيع أن ابن عثمان ماش من جهة وابن سوارماش من جهة. ثم أن السلطان نادى للعسكر بالرحيل من حلب والنزول على حيلان لقتال الباغي ابن عثمان، وأن السلطان والأمراء عن قريب يخرجون إلى القتال، والذي يريده الله تعالى هو الذي يكون...

وفي يوم السبت سادس عشر شعبان أُشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمّت وعمت وزلزلت لها الأقطار، وما ذاك أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرّد من عند الأمير علان الدوادار الثاني أحد الأمراء المقدّمين، فذكر فيه أن السلطان كان يكذب في أمر سليم شاه بن عثمان ويصدّق إلى أن حضر مغلباي دوادار سكين وهو في حال من النحس، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلح وقال له: قل لأستاذك يلاقيني على مرج دابق. فلما سمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان.

والذي استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه صلى الظهر وركب وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء في العشرين من رجب، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة. وكان تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزُمور ونُفوط حتى رجّت لهم حلب، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان فبات بها. فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجّه إلى مرج دابق، فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب، وهو يوم نحس مستمر، فما يشعر إلّا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان. فصلى السلطان صلاة الصبح ثم ركب وتوجه إلى زغزغين وتل الغار، وقيل هناك مشهد نبي الله داود عليه السلام، فركب السلطان وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة بيضاء وعلى كتفه طبر، وصار يرتب العساكر بنفسه. فكان أمير المؤمنين عن ميمنته وهو بتخفيفة وملوطة، وعلى كتفه طبر مثل السلطان، وعلى رأسه السنجق الخليفتي. وكان حول السلطان أربعون مصحفاً في أكياس حرير أصفر على رؤوس جماعة أشراف، وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفّان رضي الله عنه. وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم: خليفة سيدي أحمد البدوي ومعه أعلام حمر، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر، وخليفة سيدي أحمد بن الرفاعي ومعه أعلام خليفتي، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضي الله

عنها بأعلام سود. وكان الصبي قاسم بك ابن أحمد بك ابن عثمان واقفاً بإزاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أحمر. وكان الصنجق السلطاني واقفاً خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعاً، وتحته مقدم المماليك سنبل العثماني والسادة القضاة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين. وكان ميمنة العسكر سيباي نائب الشام، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب.

فقيل أول من برز إلى القتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النوّاب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق، وأخذوا المكاحل التي على العجل ورماة البندق، فهمّ ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان وكانت النصرة لعسكر مصر أولاً، ويا ليت لو تمّ ذلك، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان: لا تقاتلوا شي وخلّوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال، فبينما هم على ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة، وقتل ملك الأمراء سيباي نائب الشام، فانهزم من في الميمنة من العسكر. ثم أن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة، وأسر الأمير قانصو بن سلطان جركس، وقيل قتل. ويقال إن خاير بك نائب حلب كان موالياً السلطان

في الباطن، وهو مع ابن عثمان على السلطان، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة.

وكان ذلك خذلاناً من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر، فصار السلطان واقفاً تحت الصنجق في نفر قليل من المماليك، فشرع يستغيث للعسكر: يا أغوات هذا وقت المروّة قاتلوا وعليّ رضاكم. فلم يسمع له أحد قولاً وصاروا ينسحبون من حوله شيئاً بعد شيء. فالتفت للفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم: ادعوا إلى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم، وصار ما يجد له من ناصر ولا معين، فانطلق في قلبه جمرة نار لا تطفى، وكان ذلك اليوم شديد الحرّ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعضاً، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر وغُلّت أيديهم عن القتال.

فلما اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال، فخاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق فأنزله وطواه وأخفاه، ثم تقدم إلى السلطان وقال له: يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانجُ بنفسك واهرب إلى حلب. فلما تحقّق السلطان ذلك نزل عليه في الحال خلط فالج أبطل شقّته وأرخى حنكه. فطلب ماء فأتوه بماء في طاسة ذهب، فشرب منه قليلاً وألفت فرسه على أنه يهرب، فمشى خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة

قهره، وقيل فقعت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر. وقيل إنه لما رأى الكرة عليه ابتلع فص ماس كان معه، فلما نزل جوفه غاب عن الوجود وسقط عن فرسه ومات من وقته، على ما قيل من هذه الإشاعة. فلما أشيع بموته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين قريب السلطان، والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثاني أحد المقدمين، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله.

وأما السلطان فمن حين مات لم يُعلم له خبر، ولا وقف له أحد على أثر، ولا ظهرت جثته بين القتلاء، فكأن الأرض قد انشقت وابتلعته في الحال، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر. فداسوا العثمانية المصاحف التي كانت حول السلطان بأرجل الخيول، وفقد المصحف العثماني وأعلام الفقراء وصناجق الأمراء، ووقع النهب في عسكر مصر، وزال ملك الأشرف الغوري على لمح البصر فكأنه لم يكن، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغيّر... ولم يقع قط لأحد من سلاطين مصر أنه وقع له مثل هذه الكاينة، ومات تحت صنجقه في يوم الحرب، وانكسر على هذا الوجه أبداً، ولا سُمع بمثل ذلك، ونهب ماله وبركه بيد عدوه، غير قانصوه الغوري. وكان ذلك في الكتاب مسطوراً وكان السلطان والأمراء ما منهم أحد ينظر في مصالح المسلمين بعين العدل والإنصاف فردت عليهم أعمالهم ونيّاتهم وسلط الله تعالى ابن عثمان حتى جرى لهم ما جرى.

ثم ان ابن عثمان تحوّل عن مرج دابق ودخل إلى حلب فملكها من غير مانع. فنزل بالميدان التي بها في مكان كان به السلطان، وهذا ما انتهى إلينا من ملخص هذه الواقعة مع ما فيها من زيادة ونقصان...

ملحق - ٣

أخبار سنة سبع وتسعين وثمانمائة

(بدائع الزهور ٣/ ٢٨٥ - ٢٩٢)

اتّبع ابن إياس المنهج الحولي في التاريخ فدوّن الحوادث شهراً بعد شهر في الأجزاء الغير معاصرة من كتابه. وهاك ما دوّنه من أخبار سنة ٨٩٧ هـ على سبيل المثال واصفاً الأحوال الداخلية في مصر دون تمييز لناحية خاصة.

«فيها في المحرم كان دخول الحاج إلى القاهرة، وحجّت في تلك السنة زوجة آقبردي الدوادار، وهي ابنة العلاي علي بن خاص بك، اخت خوند زوجة السلطان. وكان طريق الحجاز في تلك السنة مخوفاً بسبب فساد العربان.

ـ وفيه تغيّر خاطر السلطان علي مجد الدين اسماعيل

الناصري، قاضي قضاة الحنفية بدمشق، فلما حضر بطحه السلطان وضربه بين يديه ضرباً مبرحاً، وقيل بل ضربه بالمقارع نحواً من عشرين شيباً.

- وفي صفر توفي نور الدين علي بن محمد بن عبد المؤمن البتنوني الشافعي، ناظر الحوالي، وكان رئيساً حشماً لا بأس به. وتوفي يشبك جنب من ططخ الظاهري جقمق، أحد الأمراء الطبلخانات والرأس نوبة الثاني، وكان لا بأس به وقد جاوز السبعين سنة من العمر.

- وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوي على العادة، وكان حافلاً وفيه قُرِّر الناصري محمد بن جرباش في مشيخة المدرسة الظاهرية التي بين القصرين. وفيه توفي تاج الدين بن الجيعان وهو عبد اللطيف بن عبد الغني ابن علم الدين شاكر، وكان متحدثاً في كتابة الخزانة، وكان شاباً حسناً محمود السيرة في أفعاله.

- وفي ربيع الآخر تزايدت الأقوال بوقوع الطاعون، حتى حكي أن شخصاً من الأتراك رأى في منامه ملك الموت، فقال له: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت جئت إلى قبض أرواح الكثير من الناس، فإن الطاعون قد دخل مصر، فقال له ذلك الجندي: هل تقبض روحي في هذا الوباء؟ فقال له: قد بقي من عمرك سبعة أيام؛ فانتبه الجندي من المنام وهو مرعوب، فلما أصبح كتب وصية، ثم أنه في اليوم

السابع مات كما قيل له، فعُدّ ذلك من النوادر الغريبة.

وفيه جاءت الأخبار بأن مملكة حسن الطويل في اضطراب، وأن ابن عثمان أشرف على أخذ بلاد الطويل من يد أولاده، فلما بلغ السلطان ذلك قصد أن يخرج تجريدة صحبة حسين بن أغرلو بن حسن الطويل، الذي كان مقيماً بالقاهرة. ثم آل الأمر إلى إهمال خروج التجريدة، ومات حسين فيما بعد لمّا حج ودفن بالمدينة الشريفة.

- وفي جمادى الأولى قويت الإشاعات بوقوع الطاعون، وزعموا أن إنساناً رأى النبي صلعم في المنام، وقال له: إن الطاعون كان واقعاً عليكم فشفعت فيكم عند ربي، فقل للناس يصوموا سبعة أيام متوالية، فصام الكثير من الناس سبعة أيام متوالية، فلم يفد من ذلك شيء ووقع بالديار المصرية، وكان طاعوناً مهولاً؛ قلت: ولم يقع الطاعون بمصر من سنة إحدى وثمانين وثمانمائة إلاّ في هذه وهي سنة سبع وتسعين وثمانمائة، وقد تأخر الطاعون عن ميجاله ست عشرة سنة لم يدخل مصر. وكان هذا الطاعون من الطواعين المشهورة بموجب إبطائه هذه المدة، وهو الطاعون الثالث الذي وقع في دولة الأشرف قايتباي.

وكان مبدأ هذا الطاعون من حلب، وكان في مدة انقطاع الطاعون عن مصر كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الرباء وجور المماليك في حق الناس. وقد روي عن

رسول الله صلعم أنه قال: ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلاّ أخذوا بالفناء.

- وفي جمادى الأخرة هجم الطاعون بالقاهرة وفشى جملة واحدة، وفتك في الناس فتكاً ذريعاً. وكان قوة عمله في المماليك والعبيد والجوار والأطفال والغرباء، ووقع في هذا الطاعون أمور غريبة وحكايات عجيبة، منها أن الكمثري أبيع كل رطل بأشرفيين ولا يوجد، ومنها أن إنساناً كان معه خمسة أولاد، فطعنوا الخمسة في يوم واحد، وماتوا الخمسة في يوم واحد. ومن العجائب أن جماعة كثيرة فروا من الطاعون لما دخل إلى مصر، فتوجهوا إلى أماكن عديدة، فلما ارتفع الطاعون عادوا إلى مصر ولم يفقد منهم ولا من أولادهم أحد، فسبحان القادر على كل شيء، ولما كثر الموت عزّ وجود البعلبكي وأضرّ ذلك بحال الناس، وكفّنوا موتاهم في الخام والملحم وغير ذلك.

وفيه توفي برسباي الخازندار أحد خواص السلطان، المتكلم في أوقافه، وكان شاباً حشماً لا بأس به وتوفي مغلباي الشريفي الطويل أحد مقدمين الألوف وأصله من مماليك الأشرف قايتباي...

- وفي رجب توفيت ابنة السلطان قايتباي، وكانت تسمى ست الجراكسة، وكانت شابة جميلة مستحقة للزواج، وكانت من سريّة، فماتت هي وأمها في يوم واحد، وأخرجت قدام

نعش ابنتها، وكانت جنازة ابنة السلطان حافلة، وأخرجت في بشخاتة زركش وقدّامها كفارة.

ثم حضر جانم المعروف بالمصبغة من الشام، فلما حضر إلى مصر أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بمصر، وأنعم على قرابته كرتباي بتقدمة ألف، وكان يوماً مشهوداً.

وفي هذا الشهر أنعم السلطان على مملوكه جانبلاط من يشبك بتقدمة ألف وبعث إليه بالكتب وجانبلاط هذا هو الذي ولي السلطنة فيما بعد...

وفي أواخر هذا الشهر تناقص أمر الطاعون وخفّ بالنسبة لما كان عليه، بعدما جرف من الناس جرفاً وأخلى الدور من أهلها، قيل أحصي من مات في هذا الطاعون بمصر، وورد اسمه لديوان المواريث، خارجاً عن الطرحاء ولم يرد اسمه إلى الديوان، فكانوا نحواً من مائتي ألف إنسان وزيادة، فمن ذلك بنات بكر اثنتي عشرة ألف بنت من مصر والقاهرة والضواحي.

ـ وفي شعبان ارتفع الطاعون عن مصر والقاهرة جملة واحدة ومشى نحو بلاء الصعيد وفي هذا الشهر توفي الشيخ شمس الدين الحمصاني، محمد بن أبي بكر بن محمد القاهري الشافعي، الكاتب المجيد، وكان عالماً فاضلاً عارفاً بالقراءات السبع، وكان إمام جامع ابن طولون، وكان ديناً خيراً لا بأس به. وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب

بأن الفنس صاحب قشتيلية الفرنجي قد ملك غرناطة، التي هي دار مملكة الأندلس، وكانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع المهولة في الإسلام.

- وفي رمضان قرّر ناصر الدين محمد الصفدي في وكالة بيت المال، وحصل منه الظلم والعسف في الناس وفيه ثارت فتنة كبيرة بين المماليك الجلبان، بسبب تفرقة الأقاطيع التي توفّرت عن المماليك الذين ماتوا بالطاعون، فشرع السلطان يفرق المثالات على المماليك باستدعاء اسم كل مملوك مثل الجامكية. وأخرج عدة أقاطيع من الذخيرة وفرّقها على المماليك حتى أرضاهم بكل ما أمكن، فكان معظم كل إقطاع نحو خمسة وعشرين ألف درهم، ومنهم دون ذلك، وقد تحيّر السلطان في رضا المماليك بسبب ذلك.

- وفي شوال خرج المحمل من القاهرة، وكان أمير ركب المحمل تاني بك الجمالي أمير مجلس، وبالأول كرتباي قريب السلطان.

وفيه تغيّر خاطر السلطان على الصاحب قاسم فعزله، وكان يومئذ ناظر الدولة...

- وفي ذي القعدة أمر السلطان بتجديد عمارة الميدان الناصري. وكان الأتابكي أزبك شاداً على العمارة حتى انتهى منه العمل. وفيه كان وفاء النيل، ونزل الأتابكي

أزبك وفتح السد على العادة. وفيه اختفى تغري بردي الاستادار، وقد تغيّر خاطر السلطان عليه، فلما طال اختفاؤه أخلع السلطان على الأمير آقبردي الدوادار، وقرّر في الاستادارية، عوضاً عن تغري بردي، مضافاً لما بيده من الدوادارية الكبرى.

- وفي ذي الحجة جاءت الأخبار من مكة بوفاة الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن، وكان من مشاهير التجار، في سعة من المال، وله برّ ومعروف، وهو صاحب المدرسة التي ببولاق عند الرصيف...

ملحق ـ ٤

حوادث شهر شعبان ٩٢٣ هـ

(بدائع الزهور ٥/ ٢٠٢ ـ ٢١١)

دوّن ابن إياس الحوادث يوماً بعد يوم في الأجزاء المعاصرة من تاريخه وهاك مثالاً على حوادث شهر شعبان سنة ٩٢٣ هـ كما أوردها مؤرخنا.

«وفي شعبان المكرّم كان مستهل الشهر يوم الأربعاء، ففي ذلك اليوم أشيع أن شيخ العرب أحمد بن بقر لما رأى أن السلطان سليم شاه قبض على حسن بن مرعي شيخ عربان البحيرة وسجنه بالبرج، فخاف على نفسه وخرج من القاهرة على حين غفلة وتوجه إلى جهات الشرقية ولاقته العربان، ولو تكاسل يوماً آخر لقبض عليه ابن عثمان وسجنه كما فعل بحسن بن مرعي.

وفيه أشيع أن جماعة من العثمانية قتلوا أميراً من أمراء ابن عثمان وهو نائم على فراشه، وكان صاحب صنجق، ولم يعلم ما سبب ذلك، وقيل قبضوا على من فعل ذلك من العثمانية وشُنق جماعة ممّن فعل ذلك.

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه بدا له أن يعزل يونس باشاه من نيابة السلطنة بمصر، ويولي ملك الأمراء خاير بك عوضاً عنه وذلك لأمر قد عنّ له.

ومن الحوادث أن ابن عثمان لما سكن في بيت الأشرف قايتباي المطل على بركة النيل، فلما جرى الماء في الخليج الحاكمي، أمر بسد الخليج من عند قنطرة عمر شاه حتى تمتلىء بركة النيل بالمياه بسرعة.

- وفي يوم الجمعة ثالث شعبان أشيع أن ابن عثمان قوي عزمه على العودة إلى بلاده وخروجه من مصر، فعيّن شخصاً من أمرائه يقال له علي بك، فخرج في ذلك اليوم وصحبته جماعة من العثمانية بسبب إصلاح الآبار التي في طريق غزة، وتنظيف الطرقات من الوعر قبل خروج السلطان، فلما تحقق عسكره أمر خروجه إلى السفر إلى اسطنبول، شرعوا في عمل يرقهم ومشترى زوادتهم، فارتجت لهم القاهرة بذلك.

- وفي يوم السبت رابع شعبان وقعت حادثة مهولة، وهو أن السلطان سليم شاه قبض على جماعة كثيرة من عسكره نحو

أربعة وعشرين إنساناً، وقيل أكثر من ذلك، فلما قبض عليهم رسم بشنق جماعة منهم في أماكن مختلفة، وكَلَّب منهم اثنين على باب زويلة، واثنين على باب الصاغة، وخوزق جماعة منهم وقطع أيديهم وأرجلهم. وأشيع أن سبب ذلك أن جماعة من الإنكشارية قصدوا أن يقتلوا ابن عثمان لما كان بالمقياس، فاستدرك فارطه وتحوّل إلى بيت ابن السلطان قايتباي الذي خلف حمّام الفارقاني، وصار يقبض على من كان سبباً لإشاعة قتله.

وفي يوم الخميس ثالث عشرين شعبان، فيه خرج وتوجه إلى السفر سلطان مصر الملك المظفر سليم شاه ابن عثمان، فخرج من بيت ابن السلطان قايتباي في موكب حفل وقدامه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب وجان بردي الغزالي نائب الشام، وكان راكباً على بغلة ضراء عالية قيل إنها من بغال السلطان الغوري كان يركبها في الأسفار، وكان عليه قفطان مخمل أحمر وقدّامه جماعة من الوزراء... ثم ان ابن عثمان لما رحل من مصر ترك بها من عسكره، ممّن يقيم بالقاهرة عند خاير بك، نحو خمسة آلاف فارس، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام، وقرّر من أمرائه شخصاً يقال له خير الدين باشاه وجعله نائب القلعة، فيقيم بها ولا ينزل إلى المدينة.

ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة لأنه خادم

الحرمين الشريفين، وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون اللعين. ولكن ابن عثمان انتهك حرمة مصر، وما خرج منها حتى غنم أموالها وقتل أبطالها، ويتّم أطفالها وأسر رجالها وبدّد أحوالها، وأظهر أحوالها. فلم يدخل إليها أحد من الخوارج ولا قط ملكها ولا جرى عليها ما جرى إلّا أن كان في زمن البخت نصّر المايلي، فقد جرى عليها من ابن عثمان بعض ما جرى عليها من البخت نصر فلا حول ولا قوة إلّا بالله العظيم.

وأشيع أن ابن عثمان خرج من مصر وصحبته ألف جمل محمّلة ما بين ذهب وفضّة... وفي مدة إقامة ابن عثمان حصل لأهلها الضرر الشامل، وبطل منها نحو خمسين صنعة، وتعطّلت منها أصحابها، ولم تعمل في أيامه بمصر.

فكانت مدة إقامة ابن عثمان بمصر ثمانية أشهر إلّا أياماً، وهو مالك من الفرات إلى الشام إلى مصر. ويخطب فيها باسمه، وكذلك السكّة على الذهب والفضة باسمه، وكذلك ما حول العراقين وقد وعده الله تعالى بذلك، وفي مدة إقامة ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوساً عاماً، ولا رآه أحد، ولا أنصف مظلوماً من ظالم في محاكمته، بل كان مشغولاً بلذته وسكره وإقامته في المقياس بين الصبيان المرد ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه. فكان ابن عثمان لا يظهر إلّا عند سفك دماء

المماليك الجراكسة، وما كان له أمان إذا أعطاه لأحد من الناس، وليس له قول ولا فعل، وكلامه ناقض ومنقوض لا يثبت على قول واحد كعادة الملوك في أفعالهم، وليس له سماط يُعرف ولا نظام كعادة السلاطين في سماطهم الذي كانت تجلس عليه الخاصكية كل يوم. وأما عسكره فكانوا جيعانين العين نفوسهم قذرة، يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم في الأسواق وعندهم عفاشة في أنفسهم زائدة وقلة دين، يتجاهرون بشرب الخمور في الأسواق بين الناس، ولما جاء عليهم شهر رمضان فكان غالبهم لا يصوم ولا يصلي في الجوامع ولا صلاة الجمعة إلّا قليل منهم ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة، وليس لهم نظام يعرف لا هُم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم، وهم همج كالبهائم...

ملحق - ٥

أهم الوظائف والرتب والألقاب العسكرية والمدنية
وغيرها الواردة في كتاب «بدائع الزهور»
مرتبة على الحروف الهجائية

أتابك: لقب تركي مركب من مقطعين: «آتا» أو «أطا» ومعناه أب و«بك» ومعناه أمير. وقد أطلق السلاطين السلاجقة هذا اللقب على من يقوم بتربية أبنائهم الصغار، ثم أطلق فيما بعد على القائد العام للجيش المماليكي، فيقال له أتابك العسكر. والأتابكية هي إمارة الجند، وهي تلي رتبة نيابة السلطنة في الأهمية وقد تضارعها، وفي أحيان تبزّها أهمية.

أتابكية: انظر أتابك.

الأجناد البحرية: هم الطبقة الثالثة من الجند في الجيش المصري المملوكي، وهم يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان

في السفر كالحرس، وأول من رتّبهم وسمّاهم بهذا الاسم، السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد.

أجناد الحلقة: هم مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم، وهؤلاء احترفوا الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة.

إخوان سلار: وظيفة بالمطبخ السلطاني يقوم صاحبها بتقديم الخوان بالطعام إلى السلطان. ويبدو أن صاحب هذه الوظيفة كان كبير رجال المطبخ السلطاني، وهو يقوم مقام المهتار في غير المطبخ من البيوت السلطانية.

الارتفاع: ما يتحصل من الدواوين عامة، ويقال ارتفاع الديوان الخاص، أي ما يتحصّل من الديوان الخاص بأموال السلطان.

أسفهسلار: أو أسبهسلار، لقب من الألقاب الخاصة بأمراء الطبلخاناه في عصر المماليك. ولكن هؤلاء لم يلبثوا أن أعرضوا عن هذا اللقب عندما وجدوا أن العامة يطلقونه على بعض من يقف بباب السلطان من الأعوان. وهي مشتقة من سباه سلار الفارسية بمعنى القائد العام.

أستادار: لفظ مركب من لفظتين فارسيتين إحداهما «أستد» ومعناها «الأخذ»، والثانية «دار» ومعناها «الممسك» فمعنى اللفظ «المتولي للأخذ». والأستادار يتولى شؤون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان

وله مطلق التصرّف في استدعاء كل ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجرى ذلك من المماليك وغيرهم، فهو كبير خدام القصر. والأستادارية وظيفة من وظائف أرباب السيوف.

أستادار الصحبة: ينظر في المطابخ السلطانية، ويشرف على الأطعمة وتنظيم الموائد.

الأستادارية: انظر الأستادار.

الأستاذ: كلمة فارسية تعني عريف أو سيد أو معلم. أطلقت في المصطلح المملوكي على السيد الذي اشترى المملوك بالمال وتعهّده بالتربية حتى كبر وأعتقه. وكانت رابطة الأستاذية، التي تربط المملوك بأستاذه، من أقوى الروابط حتى أن كثيراً منهم نُسبوا إلى أساتذتهم.

الاستيمار: السجل الحكومي «الذي يشتمل على أرزاق ذوي الأقلام وغيرهم».

الأسطول: مجموعة مراكب حربية مجتمعة، والأسطولي هو العسكري الذي يعمل في البحر.

أسلمي: وجمعه أسالمة، ويقال أيضاً مسلماني وجمعه مسالمة أو مسلمة، ويقصد به كل من دخل الإسلام حديثاً من أهل الديانات الأخرى.

الأشرف: لقب من ألقاب التشريف يطلق على من يلقب

بـ «المقام» و «المقر».

أصحاب الأرباع: الأرباع جمع ربع، وهي أقسام أو أحياء المدينة الآهلة. أو أصحاب الأرباع هم الخفراء الذين يقومون بحراسة تلك الأحياء ليلاً.

إصطبل: مجموعة من المباني يبنيها الأمير المملوكي لسكنه وسكن أسرته ومماليكه وخيولها.

الأطلاب: جمع طلب، لفظ كردي معناها الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال. وقد عدل مدلول اللفظ فأصبح يطلق على الكتيبة في الجيش والأطلاب أيضاً هم الحرس الخاص لأمراء المماليك.

إقامة: وجمعها إقامات، ما يلزم الجند من المؤونة والعلف وغيرها. وربما قصد بها ما ينزل فيها المسافر من الخيام ولوازمها وما يتبعها من أمتعة السفر.

الإقطاع: هو أن يُعطي الحاكم أحداً من الناس قطعة أرض زراعية أو غيرها لاستغلالها بشروط حدّدها الفقهاء المسلمون. وفي كتاب «الأحكام السلطانية» تفاصيل واسعة عن الإقطاع في الإسلام وشروطه وأنواعه.

أمير آخور: لقب مركب من مقطعين، أحدهما عربي، وهو «أمير» والثاني فارسي وهو «آخور» ومعناه «المعلف» فمعنى اللقب «أمير المعلف» فهو المشرف العام على الاصطبل

السلطاني ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات وإمرة الآخورية، وهي اسم الوظيفة، لها أمراء عدة تختلف مراتبهم.

أمير جاندار: يستأذن للأمراء في الدخول إلى السلطان، وينظم مواكب السلطان حين سفره.

أمير خمسة: أصغر مرتبة من مراتب الأمراء، ويعتبر أصحابها من كبار الأجناد. كذلك كانت تمنح هذه الرتبة لأولاد الأمراء المتوفين من باب التشريف وقد بلغوا ٣٠ أميراً بخدمة كل منهم خمسة مماليك.

أمير شيكار: يقوم برعاية الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها، وكذلك كل ما يتعلق بالصيد وحيواناته.

أمير طبلخانة: من مراتب أرباب السيوف في مصر المملوكية، يلي صاحبها في المرتبة أمير مائة مقدّم ألف. وسمي أمير طبلخانه لأحقيته في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المئين. ويطلق عليه أيضاً أمير أربعين لأنه يراس أربعين فارساً، وقد تزيد، وعدد أمراء هذه الطبقة لا ضابط له وقد بلغ عام ٩٠٨ هـ نحو خمسة وأربعين أميراً، كان منهم عشرة موظفين، والباقي بغير وظيفة.

أمير عشرة: ويرأس عشرة فرسان، وقد تزيد، ويختار منهم صغار الولاة. وعدد أمراء طبقة العشروات لا ضابط له وقد بلغ ٩٠٨ هـ مائة وثمانين أميراً.

امير مائة مقدّم الف: أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك، وهي خاصة بأرباب السيوف. ويكون في خدمة صاحبها مائة مملوك، وهو في نفس الوقت مقدّم على جندي من أجناد الحلقة في وقت الحرب. ويختار من طبقتها نواب السلطنة وأكابر موظفي الدولة. وبلغ عدد الأمراء المقدمين في عهد الغوري ستة وعشرين أميراً.

أمير مجلس: يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير. كما كان يتحدث عن الأطباء والكحالين ومن شاكلهم.

الأهراء السلطانية: المخازن والشُوَن التي تخزن فيها الغلال الخاصة بالسلطان ولا تفتح الاّ في حالات الشدة والمجاعات.

الأوجامية (الأوشاقية): مفردها أوشاق أو أوجاق، وهي فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة. ولعل الأوجاق هو السايس الذي يخرج بالخيل لتريّض.

أيلجي: جمعها إلجية، السفير أو المبعوث.

البادشاه: لقب فارسي مركب من كلمتين: «باد» بمعنى «تخت» أو «عرش» و «شاه» بمعنى «صاحب» أو «سيد»، أي صاحب العرش وهو الملك.

باب سر لطيف: هو الباب الذي يوجد بمكان غير ظاهر من العمارة الإسلامية ويدخل منه السلطان أو غيره من

الشخصيات الكبرى في حالة الزحام في الحفلات، أو عند التخفي في حالة وجود حريم. والمقصود بباب لطيف أي صغير.

بابيّة: ومفردها بابا، وهو «لقب عام لجميع رجال الطشت خاناه ممّن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك. وهو لفظ رومي معناه أبو الآباء... وكأنه لُقّب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه من تنظيف قماشه وتحسين هيئته، أُشبه بالأب الشفيق».

البادهنْج: جمعه بادهنجات؛ وهو المنفذ الذي يوجد وسط المبنى للتهوية.

البازدار: وهو الذي يحمل الجوارح والطيور المعدّة للصيد على يده.

الباشورة: وجمعها بواشير؛ وهي سد من التراب لمنع وصول الخيّالة والرجّالة والسهام إلى موضع المحاربين.

البرانيّة: المماليك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية، ويقال لهم الخرجية ايضاً أما الخاصكية فكانوا يسمون باسم الجوانيّة.

البردار: «هو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان في الجملة، متحدثاً على أعوانه والمتصرّفين فيه...».

البرْك: المتاع الخاص من ثياب ورقيق.

بركستوان: غاشية الحصان المزركشة.

البشمقدار (البجمقدار): هو الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير.

بطّال: وجمعها بطّالون، أي الأجناد والأمراء العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها نتيجة غضب السلطان أو كبر السن، أو الاضطرار إلى الاعتكاف والاختباء أو لمجرد حب الانزواء والابتعاد.

البيكار: جمعها بياكير؛ الحرب عامة.

التجريدة: الجمع تجاريد، ويقال لها ايضاً «جريدة» وجمعها جرائد؛ وهي الفرقة من العسكر الخيّالة لا رجّالة فيها. والتجاريد تنقسم على نوعين: نوع إلى الغزوات ونوع إلى المحاربين البغاة؛ وإن التجريدة تتكون من الخيال والرجّالة.

التجريس: هو أن يُشهّر المذنب في طرقات المدينة، ويضرب الجرس على رأسه ليجتمع الناس حوله؛ ثم يضرب أو يوسّط علناً في نهاية المطاف.

التخفيفة: هي العمام.

تخت: مقعد، وتخت الملك هو كرسيه.

تخليق المقياس: التخليق هو التعطير بالرائحة العطرية المسماة «خلوق»؛ ومعنى تخليق المقياس تعطيره ومسحه بالزعفران عند وفاء النيل.

التذرّع بالسخَام: تلطيخ الأذرع بالسخام؛ وهو الفحم وسواد القدر، وذلك إظهاراً للحزن.

تذكرة: مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه وقصّاده لتذكرتهم بتفاصيل ما يوكل إليهم، وليكون بمثابة ورقة اعتماد إلى الجهات التي يقصدونها.

الترابي: الأطفال من أسرى الحروب.

التُرْسيم: وجمعه تراسيم، وهو الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة لعقوبة شخص أو بوضعه تحت المراقبة.

التركاش: الجعبة أو الكنانة التي توضع فيها النشاب.

التسمير: عقوبة تقضي بتعرية المحكوم عليه من الثياب، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب؛ وتدق أعضاؤه بواسطة مسامير غِلاظ.

التشريف: جمعها تشاريف، وهو الخلعة أو الملابس المهداة من السلطان إلى كبار الأمراء في مناسبات خاصة أهمها التعيين في الوظائف الكبرى كالنيابات.

التشهير: عقوبة تقضي بأن يطرح المذنب على ظهر جمل ثم يطاف به في المدينة ليشهر وقد تزفّه المغاني وهو على هذه الصورة ليجتمع الناس حوله؛ وفي نهاية المطاف يضرب أو يوسط أمام الناس.

التصقيع: إحصاء البيوت والعقارات لأجل فرض ضريبة

عليها. والتقويم تقدير قيمة كل من البيوت المحصاة من أجل الغرض نفسه.

التقليد: هو المرسوم الذي يصدره السلطان بتعيين كبار موظفي الدولة مثل القضاة والنواب على الأقاليم وغيرهم.

التوسيط: عقوبة تقضي بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف، على ان تكون الضربة قوية تحت السرة، فتقسم الجسم نصفين من وسطه.

تومان (طومان): الفرقة التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل.

الجاشنكير: الأمير الذي يقوم بذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يدس عليه فيه السم أو نحوه.

الجالية: جمعها جوالي، وهي ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المفروضة عليهم كل سنة.

الجشار: جمعها جشارات، هو مكان رعي الماشية من خيل وغيرها.

الجاليش: راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تحمل في مواكب السلطان، لا سيما المواكب الخاصة بالحرب، وكان المماليك يطلقون اللفظ أيضاً على الطليعة من الجيش.

الجامكية: جمعها جوامك؛ وهو الراتب المربوط لشهر أو أكثر.

الجاندار: الأمير الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان.

الجتر: مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب؛ وتحمل على رأس السلطان في موكب الصيد.

جرائحي: طبيب الجراحة.

الجناب: لقب من ألقاب التشريف، يطلق على كبار الموظفين من أرباب السيوف والأقلام.

جند الحلقة: هم قلب الجيش المملوكي والأصل في حيازة الإقطاع الحربي، ويقسمون من حيث العمل الذي يؤدونه إلى أربعة أقسام: البحرية ومهمتها حراسة السلطان بالقلعة أو حيث يكون، ومماليك المهمات الشريفة الذين يرسلهم السلطان في سفاراته، ومماليك الغيبة الذين يعينهم السلطان بالمراكز التي يحدّدها لهم بمصر والقاهرة خلال غيبته أما القسم الرابع فيتكون من فئة تخدم في بيوت الأمراء.

الجمدار: الموظف الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه.

الجمقدار: هو الذي يمشي في المواكب السلطانية عن

يمين السلطان حاملاً دبوساً له رأس ضخم مذهب؛ على أن يتجه نظره إلى السلطان من أول خروج الموكب حتى انفضاضه.

جناية: وجمعها جنايات؛ وهي ما يفرضه السلطان من ضرائب وغرامات تأديبية على رغبته.

الجوشن: الدرع.

الجوك: الركوع على الركبتين في حضرة عظيم.

الجوكان: عصا تستخدم في لعب الكرة.

الجوكندار: هو الذي يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة.

الحاجب: هو في أصل الوضع، الذي يبلغ الأخبار من الرعية إلى الحاكم ويأخذ له الإذن منه، وفي دولة المماليك كان الحاجب يقف بين يدي السلطان في المواكب ليبلغ ضرورات الرعية إليه، ويركب أمامه بعصا في يده، ويتصدى لفصل الخصومات (المظالم) بين المتداعين، خصوصاً فيما لا تسوغ الدعوى فيه من الأمور الديوانية وغيرها، والحجاب مراتب، فمنهم الحاجب، والحاجب الثاني. وحاجب الحجاب وهو بمثابة رئيس الحجاب، وتسمى وظيفته «الحجوبية الكبرى» وهو يقوم بالنظر في مخاصمات الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك.

حرسي: وجمعه الحرسية، وهم الجنود المكلفون بحراسة مكان من الأمكنة.

حرفوش: وجمعه حرافيش أو حرافشة، أي الرعاع والدهماء وضعاف الخلق.

الحماية: وجمعها حمايات، وهي مكس يفرضه الأمير أو السلطان على بعض الأراضي والمتاجر والمراكب والأرزاق، ويقوم الأمير بحماية الشخص الذي يدفع ذلك المكس المقرر.

الحمل: وجمعه حمول، ما يحمل إلى السلطان من محصول إقليم نوعاً أو عيناً، وكذلك ما يحمله المحكوم عليه عدلاً أو ظلماً من الأموال إلى خزائن السلطان.

الحوائج خانة: ومعناها بيت الحوائج؛ وهي الجهة التي منها ويصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطاني والدور السلطانية، ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند، والمتعمّمين وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ أسماؤهم الدفاتر، وكذلك توابل الطعام...».

خاتون: لقب لقبت به الملكات والأميرات.

الخازندار: المشرف على خزائن السلطان من نقد وأمتعة.

الخاصكية: جماعة من مماليك السلطان، وهم مختصون به بمثابة حرسه الخاص. كان عددهم في أول الأمر أربعة

وعشرين، ثم زادوا على الأربعمائة. يدخلون عليه في أي وقت وبدون إذن، ويلازمونه في خلواته. وخصص لهم السلاطين الأرزاق الواسعة والعطايا الجليلة، وامتازوا بحسن المظهر وأناقة الركوب والملبس. والخاصكية مراتب منهم ذوي المراتب الكبيرة، ومنهم ذوي الرتب الأقل.

الخانقاه: جمعها خوانق، وهي لفظ فارسي، معناه البيت أو المعبد، ثم اطلق على المكان الذي يقيم فيه الصوفية للعبادة.

خبز: وجمعه أخباز، من معاني هذا اللفظ في عصر المماليك إقطاع من الأرض، فيقال أخباز الأجناد أي إقطاعاتهم.

الخركاه: «بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون كالخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد».

خشداش: كلمة معرّبة من اللفظ الفارسي «خوجاتاش»، أي الزميل في الخدمة. ويطلق على الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد، فنبتت بينهم رابطة زمالة قديمة باسم «الخشداشية».

الخواجا: لقب يطلق على التاجر الكبير، والكاتب والمعلّم.

خوند: لقب يفيد معنى الاحترام، ويخاطب به الذكور والإناث على السواء (سيد، سيدة).

خيل النوبة: الخيل التي تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب، وتسمى أيضاً فرس النوبة.

الدبندار: الذي يضرب على الطبل.

الدركاه: وجمعها دركاوات؛ الفضاء أو الممر المؤدي لمدخل بناء كبير.

الدستور: الإذن؛ فيقال أعطى السلطان الأمراء دستوراً، أي أعطاهم إذناً.

الدوادار: أي ممسك الدواة؛ والوظيفة اسمها الدوادارية. وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه.

الدوادارية الكبرى: يفهم من هذه التسمية، أنه كانت دوادارية» أقل منها، ولعل «الدوادارية الكبرى» الذي يطلق على شاغلها اسم «الدوادار الكبير» كان يطلق عليه لقب «أمير مائة مقدم ألف».

الديوان الخاص: هو الديوان السلطاني الخاص بالنظر في أموال السلطان والتحدث في جهاته.

الديوان المفرد: الديوان الذي يتولى نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة، وإيراده من البلاد المفردة له.

رأس الميسرة: كبير الأمراء المتقدمين في السن من أكابر أمراء المائة، وهم أمراء المشورة.

رأس النوبة: وظيفة يقوم صاحبها بالحكم على المماليك السلطانية، والإشراف عليهم. وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء واحد منهم مقدم ألف يطلق عليه اسم «رأس نوبة النوب» وثلاثة طلبخانات.

الرزق: جمعه أرزاق، وهي المرتبات سواء كانت يومية أو شهرية.

الرزقة: وجمعها الرزق، وهي الأطيان التي كان يعطيها الخلفاء والسلاطين إلى بعض الناس على سبيل الإحسان والانعام.

الركابدارية: هم الذين يحملون الغاشية بين يدي السلطان في المواكب، وهم تابعون للركاب خانة.

الرنك: وجمعه رنوك، وهو الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له. ويقول القلقشندي (٤/ ٦٢) إنه كان «من عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك أي شعار يخصه، ويجعل ذلك دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم مثل شون الغلال، وعلى أغطية خيولهم وعلى أسلحتهم أيضاً.

الروك: وفعله راك، وهي عملية مسح الأراضي الزراعية

وتعديل الخراج، وقد تمت هذه العملية في مصر الإسلامية عدة مرات.

الزردخانة: بيت الزرد، أي بيت السلاح. كما أطلق اللفظ أحياناً على السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب.

الزردكاش: الصانع الذي يعمل في السلاح خانه، في صنع السلاح وإصلاحه وتجديده.

الزَّغل: النقود المزيّفة، ويطلق اسم الزّغلة على مزيفيها.

زمام دار: الموكل بحفظ الحريم؛ أي الذي يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام والخصيان.

السراخور: وجمعها سراخورية؛ كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب، وتحرف أحياناً إلى سلاخور وسلاخورية.

السماط: المائدة؛ ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين.

شاد(أومشد): مفتش، يقال شاد الدواوين أي الذي يفتش على الدواوين.

شعار السلطنة: مظاهر السلطنة، أي أنواع الملابس، والأدوات والترتيبات التي كان يظهر بها السلطان في المواكب داخل القلعة أو خارجها.

الطّارمة: وجمعه طارمات، بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس السلطان.

طبقة: وجمعها طباق، وهي ثكنات المماليك بقلعة الجبل. وكل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد.

طرخان: الأمير المتقاعد دون أن يكون مغضوباً عليه، ولذا كان له أن يقيم حيث شاء.

الطمغا (تمغا): البراءة التي تصدر من قبل السلطان أو الملك بالعفو عن مجرم أو تأمين خائف. والطمغا أيضاً شعار السلطان.

الطواشي: جمعه طواشية، وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية وفي الحريم السلطاني، وكان لهم كلمة نافذة.

العبرة: مقدار المساحة؛ وهي في الاصطلاح المملوكي مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأرض، وما يتحصل عن كل قرية أو عين أو غلّة.

العلامة السلطانية: هي ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع.

الغاشية: قبة «من أديم مخروزة بالذهب، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب في المواكب الحفلة كالميادين والأعياد وغيرها، يحملها الركابدارية».

غلام: وجمعه غلمان؛ وهو من يقوم بخدمة الخيل، وهذا اللفظ «في أصل اللغة مخصوص بالصبي الصغير والمملوك، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم».

فرس النوبة: فرس مجهز بالسرج والغاشية، يحفظ بقرب حضرة السلطان لاستخدامه في الطوارىء، أو للركوب إعلاناً بقيام سلطان جديد.

كاتب السر: كان يشغل وظيفة رئاسة ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل.

الكاشف: وظيفته الإشراف على الجسور الزراعية.

الكافل: هو نائب السلطان، وكان للسلطان أكثر من كافل، فنائبه في القاهرة يطلق عليه «كافل الممالك الإسلامية» ونائبه في دمشق يقال له «كافل المملكة الشامية».

المباشر: الموظف في الدواوين الحكومية.

المجلس: لقب يطلق على كبار رجال الدولة من أرباب السيوف والأقلام، ويقال فيه «المجلس العالي» و «المجلس السامي». وأما مجلس المجرد من الألف واللام (مجلس الأمير، القاضي) فإنه يعني «الاجتماع».

المقام: بفتح الميم، هو من الألقاب الخاصة بالملوك، يكنون به عن السلطان تعظيماً له عن التفوّه باسمه، فيقال «المقام الشريف، المقام العالي . . .».

المقر: لقب يختص بكبار الأمراء، وأعيان الوزراء وكتاب السر ومن يجري مجراهم، ويقال فيه (المقر الأشرف، المقر الكريم العالي..).

المماليك السلطانية: مشتريات السلطان وجلبانه، وما يتبقى عنه من مماليك من سبقه في السلطنة، ومرتباتهم جميعاً من ديوان المفرد.

المماليك الجلبان: ويقال لهم الأجلاب؛ رقيق يشتريه السلطان بواسطة تجار خاصين ويربيهم في الطباق.

المماليك القرانيص: هم مماليك السلاطين القدامى.

المماليك السيفية: هم مماليك الأمراء الذين توفوا أو قتلوا أو سجنوا وأسقطت عنهم الإمارة فنقلوا إلى الديوان السلطاني.

المهمندار: هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويشرف في القيام بأمرهم.

الناس: استعمل هذا اللفظ في مصطلح مؤرخي عصر المماليك بمعنى الرؤساء أو الزعماء أو الأمراء وقد وجدت فرقة من فرق الجيش المماليكي سميت باسم «أولاد الناس» شملت أبناء أمراء المماليك فقط.

ناظر: جمعه نظّار، كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير تصريف أعماله. وقد تنوعت ألقاب النظّار حسب الأعمال التي قاموا بها.

نقيب: وجمعها نقباء، وكان عمل صاحب هذه الوظيفة عند السلطان أو الأمير تأدية الخدمات الصغيرة لسيده.

النوبة: الوقعة الحربية، ويقال ضربت النوبة، أي صدر الأمر للعسكر بالتقهقر. والنوبة أيضاً فرق الجند التي تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان.

وزير الصحبة: يكون صاحب هذه الوظيفة وزيراً متنقلاً، يرافق السلطان في أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرّف الشؤون وذلك ليتسنى للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله.

اليزك: العسَس.

المصادر

ابن إياس: أبو البركات زين الدين محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٣ م).
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ط بولاق ١٣١١ هـ/ ١٨٩٤ م ٣ مجلدات.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ت محمد مصطفى الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢.

ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠ م).
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الأجزاء من ١ - ١٣ المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣.
- الجزء ١٤ تحقيق جمال محرز الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢.
- الجزء ١٥ تحقيق إبراهيم علي طرخان الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢.

ـ الجزء ١٦ تحقيق جمال الدين الشيال الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢ .

ابن خلدون: أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م).
ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر مؤسسة جمال بيروت ١٩٧٩ .
ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩ .

ابن عربشاه: شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م).
ـ عجائب المقدور في أخبار تيمور مصر ١٢٨٥ هـ.

أبو الفدا: عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م).
ـ المختصر في أخبار البشر دار المعرفة بيروت د.ت.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م).
ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٨ .

السخاوي: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧ م).
ـ التبر المسبوك في ذيل السلوك ط مكتبة الكليات الأزهرية ـ مصر.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م).
ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ط. دار الكتب المصرية ١٩١٣ ـ ١٩١٩.

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م).
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ـ ١٩٧٢.
ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار طبعة النيل ١٣٢٤ هـ.

المراجع العربية

زيادة، محمد مصطفى: مؤرخو مصر في القرن التاسع الهجري القاهرة ١٩٥٤ م.
طرخان، إبراهيم علي: ـ مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة القاهرة ١٩٦٠ مكتبة النهضة المصرية.
ـ النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى دار الكتاب العربي ١٩٦٧.
ضومط، أنطوان: الدولة المملوكية دار الحداثة ـ بيروت ١٩٨٠.
العريني السيد الباز: المماليك دار النهضة العربية ١٩٦٧.
عاصي، حسين: المقريزي مؤرخ الدول الإسلامية في مصر

دار الكتب العلمية ۱۹۹۲ بيروت.
عاشور، سعيد عبد الفتاح: العصر المماليكي في مصر والشام دار النهضة العربية ١٩٦٥.
عنّان محمد عبد الله: مؤرخو مصر الإسلامية القاهرة ١٩٦٩.
عبد السيد، حكم أمين: قيام دولة المماليك الثانية دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٧.
مصطفى شاكر: التاريخ والمؤرخون العرب دار العلم للملايين - بيروت.
ماجد عبد المنعم: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر القاهرة ١٩٦٤.

المراجع الأجنبية

1 - Blochet: E
- Histoire des Sultans Mamlouks Par Mufazzel Ibn Abil Fazail textes publié et traduit en français 2 V Paris 1912.

2 - Demombynes: G.M.
La Syrie à l'époque des Mamlouks Paris 1922.

3 - Quatermère: Et
- Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte 2 V Paris 1898.

الفهرس